

جامعة الدول العربية



مَجَلَّة مَعَهَا الْمَخْطُوطَاتُ الْعَرَبِيَّةُ

الجزء الأول

المجلد العاشر

محرم ١٣٨٤ هـ

مايو ١٩٦٤ م

الشريف بالمخطوطات

كتاب السلسل العذب والمنهل الأجلي

تأليف العلامة

أبى عبد الله محمد بن أبى بكر الحضرمى

رضى الله تعالى عنه

تحقيق محمد الفاسى

الحمد لله الذى نور قلوب أوليائه بهدى التقوى ، فتسابت إلى صراطه المستقيم ، تتجارى فى مضمارى خالص الإيمان وأزكى الأعمال . أولئك على هدى من ربهم ، أعدت لهم الجنة نزلاً جزاء الانتهاء وثواب الامتثال (١) . وسبقت لهم سعادة الفلاح فى الأزل ، فانتهوا إلى الفوز بنحصل السبق فى أمال ، يتمتعون بما اشتته أنفسهم من قرة أعين وهم فيها خالدون ، لا يتطرق لنعيمهم قاطع الزوال ، ولا يضارون فى رؤية ذى الجلال . عليهم رضوان من الله يقرهم إلى الله زلفى ورحمة وارفة الظلال .

وصلى الله على مسكة الختام ، ولبنة التمام ، وسر السر البشرى ومنتهى الكمال ، منقذ المؤمنين من حيرة الضلال . الهادى إلى السبيل السواء ، سيدنا ومولانا محمد صفوة الأصفياء ، ونجبة الاجتباء . سيد ولد آدم وآدم بين الطين والماء ، المخصوص من الله بالحببة بين الأرسال . ورضى الله تعالى عنن له من الأصحاب والأنصار ، والقراة والأصهار ، والعشيرة والآل . أئمة الاقتداء ، ونجوم الاهتداء ، المخصوصين بالدرجات المنيفة ، والمزايا

(١) فى ك : الامثال ولا شك أنها الامتثال .

الشريفة ، التى لا مطمع فيها أن تنال ، صلاة دائمة ورضى مجدداً ، نجهدها
عدةً يوم لا ينفع بنون ولا مال .

وبعد : فإن الله تعالى بجميل لطفه ، وجزيل صنعه ، تدارك العصر
الذى كادت فيه آثار الأعمال أن تدرثر ، وشواهد الأحوال ألا تبصر ،
ودرارى الأعلام أن تخفى ، ومصاييح العلوم أن تطمس ، بالخلافة التى
أحييت مواتها ، وجمعت أشتاتها ، وحيرت طلابها ، ورفعت حماها . فانبعثت
القرائح وطمحت الهمم ، وقصد الحق فوضح السنن ، وتنوسى الخابط ،
وتلوفى الفارط ، وشمر المجدون ، لما حقه أن يرغب فيه الراغبون ، وفى
اقتنائه فليتنافس المتنافسون . وقام لله بالأمر من أعلام مريين الخلفاء
الراشدين ، فلم يخل لهم رضوان الله عليهم أجمعين ، بساط من حمله العلم
والاستكثار منهم ، ونظر التحقيق معهم والأخذ عنهم ، والمبالاة بعلومهم
والمباهاة بانتشار ذكرهم ، والتناجى مع العباد والزهاد فى أغلب الأوقات ،
وارتياض نصائحهم بالتخلص لهم فى الخلوات ، وطلبهم فى التبليغ عن
لا يستطيعه من الرعايا من سائر الطبقات ، فيحصل لهم الاطلاع على عامة
شؤونهم ، وكافة أمرهم .

فكثر العلم وفشا العدل ، وانسكب على جميع الخلق من الله المن
والفضل ، ووجد أهل الخير باستخلاصهم عليه عوناً ، وزادت محارم الله
احتراماً وصوناً ، فاسترد المغرب بسلطانهم الأعلى عصر الشباب ، وآن
للذاهب أكرم الإياب ، وامتد باع أهل العلم فى طرقه . ونجمت مقامات
أولياء الله فى أفقه ، استعداداً لأيام من كمل البغية حقها ، وأمر الخلبة
سبقها . إمام الرشد ، والقائم على أمر الخلافة لما قام لها مقام الحد ، الإمام
العاذل ، الصالح البر ، الزاكي الكامل ، ذو الجود الهامل ، والعدل الشامل
والثناء الذى عطر مهب الصبا والشمال ، أمير المسلمين ، وناصر الدين ،
مولانا أبو فارس عبد العزيز بن الخلفاء الراشدين . أيد الله مقامه ،
وأسعد أيامه .

فن كريم بماياه ، وخصائص مزاياه ، حب الصالحين ، والتشوف للوقوف على آثار الأولياء المهتدين ، وحبهم عنوان الطاعات وأزكى القرب ، ووسيلة للكون معهم في أعلى الرتب لدى الرب ، فقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «المرء مع من أحب» ، فحرصت على أن أخص بتأليف يشتمل على ذكر أربعين رجلاً من صالحى هذا العصر ، الذى طلعت فيه شمس غرته السعيدة ، فجلت كل ظلم وإظلام ، وقضت لشمل هدى المهتدين بأكرم ائتلاف وأسنى انتظام ، تبركاً بما خص الله به هذا العدد من رفعة الشأن ، حتى إن بكمال سنياه كمل عقل الإنسان . واقصرت فيما ذكرت ، على من أدركت ، ووصفت على ما بلغنى من كراماتهم ومناقبهم ، وشرحت ما تعرفت أو عرفته من سيرهم الفاضلة ومذاهبهم ، وجلبت - متى أتيت بأحدهم - ما وجدته منصوصاً في أحوال ذوى الكرامات ، ومنصوصاً بأهل المقامات . وقدمت من ذلك بين يدى نجوى حاجتى ممن عم عدله وشمل جوده وفضله قرباناً ، ورجوت ببركتهم أن يثمر لى قبوله مناً وإحساناً ، ولا غرو أن أصبت بذلك ضالة الحكمة . فقد جاء : «عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة» . ورتبت ذكرهم على ثلاث طبقات ، تقريباً لتناسب الدرجات .

١ - بدأت في الطبقة الأولى بمتبع سنن الورع أهدى الاتباع ،

السائر في طرق الاجتهاد بالباع المديد والخطو الوساع ، المؤثر للخلوة والانقطاع ، الملتزمة على تفضيله عقائد الإطباق والإجماع ، القاطع علائق الدنيا جملة وتفصيلاً ، فلم يدع بينها وبينه لما أعد للضروريات سبيلاً ، الشيخ الجامع المبارك أبو العباس أحمد بن محمد بن عمر بن عاشر السلوى . كان رضى الله عنه للخير سباقاً ، لا يزيده اجتهاده في العبادة إلا اشتياقاً ، شديد المراقبة والخوف ، على الهمة والشرف ، جليل المقام ، ذا كراً لعلم الحلال والحرام ، متمكناً في مقام الورع لا يشق فيه غباره ، ولا تجهل آثاره .

أصله من «شمسية» وبها خلق ونشأ إلى أن حفظ القرآن وقرأ العلم واجتهد في الطاعات والعبادات ، وانقطع لسبيل الأعمال الصالحات ، ثم انتقل منها

إلى الجزيرة الخضراء وأقام بها زماناً مشغلاً بتعليم كتاب الله تعالى ، فلقى بها الأكابر من أهل المقامات ، فأنس بهم ولاذ بمرافقتهم ، منهم الشيخ المبارك صاحب الحالات والكرامات ، أبو سرحان مسعود الأبله ، وكان مأخوذاً عن نفسه ، مسلوباً عن حسه . مصروفاً بمحبة الله إلى ما يحمده بعد الحلول في رमسه ، سمعت الشيخ سيدى أبا العباس يقول : كان الشيخ أبو سرحان عظيم الشأن ، وذلك أنه كان يأتى إلى المسجد الذى كنت آوى إليه ، فيؤنسنى ويأنس إلى ، فأتى إلى فى بعض مجيئاته وأنا إذ ذاك مؤثر للخلو بنفسى ، فى بيت فى صومعة المسجد ، فجلس إلى وأقبل يحادثنى ، فبينما نحن كذلك إذ حضرت الصلاة ، فأردت الخروج لأصلى مع الناس ، وكانت عندى أمانة لرجل مودعة فى آتية فى زاوية البيت ، وكان يعنى لأبى سرحان أن يصلى وحده منفرداً ، فقلت فى نفسى إن انصرفت وتركت هذا الرجل هنا - وإن غلب عليه الصلاح - فاستثنانى له يعارضنى فيه شمول الحكم ، وتردد الخاطر فى نفسى ، قال : فنظر إلى شزراً ، وقال لى : سر لحاجتك ولا تخف على ما فى الآتية الفلانية ، فعلمت صدق الرجل لاطلاعه ، ودفعت الخاطر عن نفسى ومضيت لصلاتى ، قال الشيخ : ولما أن قرب وقت حصار النصارى للجزيرة ، أتى إلى وقال لى : يا أخى إن هذه المدينة ستزل عن قريب ، فانصرف عنها قبل حلول البلاء بها ، ففعلت تصديقاً له واعتماداً على نور بصيرته ، فكان الأمر كما قال ، ونزلت بعد ذلك متصلاً بخروجه عنها .

رحل وحج ثم آب للمغرب ، فقدم فاساً المحروسة وأقام بها مدة ، ثم رحل إلى مكناسة واستوطنها مدة ، وبها إحدى أختيه إلى الآن والثانية بشمنية .

وقد كان مولانا الخليفة أبو عنان رضوان الله عليه ، أجرى على هذه التى بمكناسة جراية كانت تتعيش منها طول حياته ، نفع الله بها ، ثم انتقل إلى سلا فزل من رباط الفتح بزواية الشيخ الكبير الشأن ، صاحب الكرامات والحالات الحسان ، أبى عبد الله الياورى ، وهو معروف القدر معلوم الحال ، أحد شيوخ التربية والمنتخبين الأعلام ، فأقام هنالك دهرأ طويلاً

على بر واستحسان من الشيخ لحاله ، وكان يسميه فيما سمعت : بالشاب
الأسعد الصالح ، وكان يأمر أهل الفضل ممن يلتبس بركته ، بإيئاس
سيدي أبي العباس والنظر في مصالحه ، وأسكنه خلوة في الزاوية المذكورة ،
وتسبب له في إقراء الأولاد القرآن ، فإن سيدي أبا العباس كان يختار ألا يأكل
إلا من كسبه أو ما علم وجه كسبه ، ثم انتقل للعدوة الأخرى من سلا
فزل منها بزاوية الشيخ أبي زكرياء ، الكائنة بقرب الجامع الأعظم وبتدار
المقدم عليها إذ ذاك ، الشيخ أبي عبد الله محمد بن عيسى ، تلميذ الشيخ
أبي زكرياء المذكور ، كل ذلك بعد وفاة الشيخ الياپورى ، وكان
اكتسابه في هذه المدة ، من نسخه كتاب (العمدة) ، في حديث رسول الله
صلى الله عليه وسلم) ، وكان معجباً بهذا التأليف مؤثراً لحفظه ، وفهمه ،
كثيراً ما يندب إخوانه لذلك ، وكان يقوم على حفظه وربما أقرأه تفهماً
لكثير من أصحابه ، ينسخ فيه ثلاث نسخ في السنة غالباً ، ويسفرها بيده وربما
صنع لها أغشية من جلد بيده ، ويبيعها لمن يعرف طيب كسبه بدينار من
الذهب العين للنسخة ، لا يزيد على ذلك ، وربما نقص منه اليسير ، ومن
ذلك توفر له ما اشترى به داره التي توفي بها في درب فرات من الجهة (١)
بإزاء باب معلقة من سلا ، وفي هذه الدار شهر أمره وانتشر في الناس ذكره ،
 واجتمع إليه الأصحاب وانضاف إليه المريدون وانحاش لجنابه الثابون ، على
كراهته في الشهرة وإيثاره للعزلة ، وخصوصاً في هذا الوقت ، وقد كان
قبل يزور إخوانه الصالحين ، ويأنس برؤيتهم ومحادثتهم وملاقاتهم ، فصار
بعد سكناه بهذه الدار قليلاً ما يظهر ، وناء ما يبدو للعين ويبصر ، وقل
ما تأتى لقاؤه إلا لمن لا بد منه من المجاورين والمنقطعين لظله .

وأول من صحبه هنالك وأخذ عنه وتهدى بهديه : الشاب المبارك
أبو عبد الله محمد الزهرى ، وكان أخص الناس به ، وبسببه ائتلف أكثر
من ائتلف معه على ما يأتى بعد إن شاء الله عند ذكر الزهرى رحمه الله .
وبهذه الدار لقيه المؤلف سنة ثلاث وستين وسبعائة في أول شهر رجب

(١) في ك : بياض قدر كلمة بعد لفظة الجهة .

الفرد ، في جماعة من الزائرين له والمتبركين به الملتسين منه الإفادة ، وفدوا عليه من أهل فاس وأهل مكناسة ، فرحب بهم ودعاهم بالخير ، وحض على ما فيه رضى الله من التقوى والوقوف مع أمر الله ونهيه ، واتباع سنة الله ونبيه ، وقراءة العلم والمبادرة إلى العمل بمقتضاه . وكثيراً ما كان يردد : العلم بلا عمل كالشجرة بلا ثمر ، وأخذ يرغب في الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة ، وينهى عن الاستخفاف بحقوق الله تعالى ، والتهاون بالمكاسب واسترسال الغيبة ، وأكل الناس ، وكان ذلك من أهم ما يوصى به ويتحفظ منه ، والله أسأل الهداية لما ندب إليه بمنه وفضله .

وسمعت في مجالس التردد إليه في تلك الوجهة من فضل المجاهدة من فوائد اكتساب الحلال ما ينور البصائر ، وقال : الحلال أعظم شعب الجهاد في الوقت ، وكان من أعلم أهل زمانه في الحلال والحرام ، وبه نجح في المغرب الفقه في هذا الباب من العلم وأحيا رسمه ، وقد كانت اندرست أكثر طرقة ومعاله ، وانطلمست أغلب سبله ومسالكه ، فكان يأتي من علمه بالعجائب ، ويظهر على عمله من تدقيق الأنظار فيه فنون الغرائب ، ويأمر باستنساخ كتبه وقراءتها وتصحيحها ، حتى فشت في الناس ، وتعيش من نسخها جماعة ممن انضاف إليه ، لم يكن كسبهم إلا من نسخها ونسخ أمثالها من كتب العلم ، وخصوصاً كتب الفقه والتصوف .

فمن كتب التصوف كتاب (النصائح) للمحاسبي ، وكان كثير المطالعة لهذا الكتاب حتى كان يجرى منه مجرى الدم ، وعلى قراءته كان يحض من يستنصحه ، ولقد حض عليه مرة مولانا الخليفة أبا عنان رضوان الله عليه ، وندبه لمطالعتة في حين مكاتبتة مولانا الخليفة واستنصاحه إياه ، وكان ينظر أيضاً كثيراً في (رعاية المحاسبي) ، وفي (قوت القلوب) لأبي طالب المكي ، وفي (الإحياء) للغزالي ، وحده ومعه أصحابه أحياناً على حذر منه وتوق وشدة خوف واحتياط ، أعنى في وقت قراءتها مع الأصحاب وخروجاً منه عن عهدة الالتزام ، فكان أبداً تعليمه نصيحة إرشاد ، تعرف القلوب خلوصه فتلقاه بالقبول المتمكن ، يزكيه الله فيها . وكان مع سيادته وعظمه

في صدورهم لا يرى لنفسه عليهم شفوفاً ولا مزية ، بل يعظمهم ويجلس معهم حيث أمكنه الجلوس ، ويكنيهم ولا يدعوهم بأسمائهم ، وكثيراً ما يردد في كلامه : يا صاحبي إنما أنا واحد منكم ولست بشيخكم ولا معلمكم ، عليكم بكتب العلماء وما صنفه الحلة الفضلاء ، ولا يقتد أحد بي فيما لا يجد له أصلاً في كتب العلماء ، ولست بقدوة ولا إمام متبع ، وإنما أنا رجل من المسلمين وكان كثيراً ما يجري على لسانه من الوصايا ، قوله : الخير في ترك الشبهات ، والورع عن المنهيات ، ورد التباعات ، وترك الغيبة والنميمة ، وبذل النصيحة ، والاجتهاد في اتباع السنة ، فتلك غاية النعمة . وأول ما كان يحض عليه التائبين ، رد التباعات ، وقضاء الصلوات ، والورع في المعاملات ، والأخذ بالأوسط من الحالات ، والتحرز عن بُنَيَّات الطرق ، والشنود من العبادات .

وكان رضى الله عنه أبداً في زيادة من أمره ورفعة في حاله ، فكان من حالته أولاً في حين رؤية المؤلف له واستفادته منه ، يجلس مع أصحابه لقراءة كتب التصوف غالب الأيام ، في دار بمقربة من داره ، حبسها لذلك بعض أصحابه ، وكان المتولى للقراءة والإقراء غيره من أصحابه ، لكن ربما تمر بهم المسألة المشككة فيفزعون في حلها إليه ، فيتكلم بما عنده على حالته من الحذر والتحرز إلى كف نفسه عن حضور ذلك المعهد ، واقتصر على داره إلا في بعض الأحيان القليلة يجتمع معهم في خارج البلد ، في رقعة من رباط كان اشتراه بجهة باب سبتة من سلا ، أو بموضع داخل السور يعرف بوراء الجامع فيه الجبانات ، وكان كثيراً ما يجلس في هذا الموضع متوجهاً للقبلة ، وثم دفن بعد وفاته رحمة الله عليه . وربما كانت له وقفة بعد صلاة الجمعة عند باب داره ، يضطره إليها من يترقب زيارته بها في أيام الجمعة ، فإنه كان اقتصر على الصلوات في داره إلا الجمعة ، فكان المتبركون يغتنمون ذلك الموقف المبارك ويدعون تلك الساعة بساعة الرحمة ، وفيها كان يظهر عليه شيء من البسط ، فإنه كان الغالب عليه القبض ، وكانت تعلوه هيبة فلا يقدر أحد أن يكلمه ما لم يبتدئه ويؤنسه هو ، وكان إذا توجه لصلاة الجمعة كأنما هو متوجه إلى المحشر والموقف ، فكان يتنظف لذلك

ويتأهب ما أمكنه ، وكانت له جبة صوف خضراء وحزام صوف معدّان لذلك اليوم ، وكان يلبس في سائر أيامه جبة أخرى بالية قصيرة الأكمام قصراً كثيراً ، وحزام صوف أكحل ، وينتعل نعلاً خشناً في أسفله مسامير ، وكان في ملبسه ومكسبه وسائر أحواله في غاية التقشف والتقليل ، متبتلاً في مناجاة ربه وعبادة خالقه . وأخذ في الأبهة الغاية ينتظر القدوم عليه حتى إنه كان المتناول لما يضطر إليه في أمر معاشه من طحن وعجن وخبز وغير ذلك ، وربما كان يرغب بعض خواص أصحابه أن يكفيه شيئاً من ذلك ، فيأبى إلا اليسير في بعض الأوقات ، وكان يرى في ذلك قطع العلائق ويرغب في أجر المشقة ، وكان وجهه تكسبه إما من نسخه لكتاب العمدة ، وإما من حرث كان يحرقه له رجل من أصحابه معلوم الكسب ، يبتخر له يسيراً من القمح فيرزقه الله سبحانه مقدار قوته ، نهايته تسعون صاعاً بصاع النبي صلى الله عليه وسلم ، يأخذ منه مدّاً بحد النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو ربع صاع في كل يوم ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ويأمر بذلك ، وينهى عن الوصال ، ويقول: بقيت أواصل ما شاء الله ، وأقتات بورق الحجازي وحيوان من البحر يسمى السرنبق نحواً من سنتين ، فأضر بي ذلك في أداء الفرائض ، وكان يحذر من الخلوة المفرطة ، ويقول : ما ينبغي أن يخلو إلا قوى ، فإني كنت في بعض خلواتي ليلة ، فأتاني رجلان من الجن في أيديهما شمعتان موقودتان ، فتمالائي : نريد خدمتك وأنسك ، فأبيت ذلك خشية الفتنة .

فهذه كانت حاله رضي الله عنه ، وعلى هذا ظاهراً وقف أمره إلى أن لقي الله عز وجل ، واستأثر به سبحانه في شهر رجب الفرد من سنة أربع وستين وسبعمائة ، وكان من قصة وفاته ما حدثني به من حضر من أصحابه - فإني كنت في التاريخ بفاس - أن الشيخ رحمه الله اشتكى أربعة أيام فكانوا يبيتون عنده التماس بركته وخدمة له ، قالوا : فلما كان في الليلة التي قبض فيها ، جلسنا إليه على العادة نحادثه بمسائل من العلم ونلاطفه بما نميل إليه نفسه المباركة من الخير ، فتلقانا في تلك الليلة بالانشراح والبسط ولين الجانب ، والإمتاع من حديثه والإقبال بالفائدة علينا ، والإشارة إلى أسرار العلوم

وكشف حقائقها وغوامض أسرارها ، بما علمنا أنه مما فتح الله على قلبه بما لم يطلع عليه إلا خواص أوليائه ، فعجبنا منه غاية العجب ، وفرحنا به وابتهجت نفوسنا ، وانشرحت صدورنا ، وما نرجو الله تعالى أن ينفعنا به ، وكان ذلك فتحاً لم نعهده قط منه ولا نألفه ، فسرحننا في جنة الأنس ننعم به وبحديثه ، ونتلذذ إلى أن مر من الليل جزء وافر ، ثم التفت إلينا مسرعاً فقال : يا أصحابنا ، أطفئوا السراج ، وانصرفوا راشدين ، وخذوا مضاجعكم فإني إن شاء الله بخير والحمد لله تعالى ، قالوا : فانصرفنا من فورنا امتثالاً لأمره على كره منا لمفارقتة ، وصرنا إلى البيت الآخر من داره ، فنام بعضنا وبقي بعض دائم اليقظة امتداد ساعة ، وإذا برجل قد هب بعد أن كان نائماً وعليه أثر روع ، فقال : أدركوا الشيخ ، فإنه قبض رحمة الله عليه ، قالوا : فقمنا مبادرين إليه ، وأسرجنا السراج ، ودخلنا عليه فوجدناه كما قال قد قبض ، فعجبنا من ذلك وسألناه من أخبره ، فقال : رأيت رجلين عليهما أثر الصلاح ، أحدهما خارج من عند الشيخ والآخر داخل من باب الدار ، فقال الداخل للخارج : ما الخبر ؟ فقال له : انبسط الشيخ بنفسه ومات ، فأفقت كما رأيتم ، فقلنا : إن الشيخ حضره رجال الغيب ، فجهز ودفن في صبيحة تلك الليلة ، في الموضع المدعو بوراء الجامع ، وقد كان دفن بمقربة من ذلك الموضع ، جملة من أصحابه ، ممن كان مات قبله رحمة الله على جميعهم .

والذى حضرني مما حدثت به من كرامته ، وما أظهره الله سبحانه عليه من علامات عنايته على شدة إخفائه لذلك وستره لأمره ، فإنه كان مذهبه ذلك ، وهو الذى طمس كثيراً من أخباره وسيره في ابتداء أمره ، وما كان أحد يقدر على الأخذ معه في شيء من ذلك ، ولا يسأله عنه إلا اليسير ، لكن مع تراخي الأيام يجرى في أثناء حديثه ما يلوذ به الحفظ من المريدين .

فمن ذلك ما حدثني به غير واحد من أصحابه عن الشيخ نفسه رضى الله عنه أنه قال : من جميل صنع الله تعالى بي في وجهتي للحجاز ، أتى لما بلغت إلى حيث يحتاج إلى شراء الراحلة ، وخرج الناس لشراء ما يحتاجون منها وأبطأت عنهم إلى أن اختاروا حاجتهم ، فجئت فلم أجد ما أشتري غير حمل

هزيل لم يرض به أحد ممن تقدمني ، فاضطرت لشرائه وعقدت مع صاحبه ، ورمت دفع الثمن فاشتراط أن يكون الثمن ذهباً أميرياً ، فسقط في يدي من أنني لا بممكنني تركه وليس عندي ذهب أميرى ، فأخرجت ذهبية كانت عندي لأن يتخير منها ما شاء وأرغب منه في قبوله وإن كان غير أميرى ، قال : فيسر الله تعالى ووجدنا من الذهب القدر الذى احتجنا أميرياً لا ينقص شيئاً ولا يزيد شيئاً ، فحمدت الله على تيسيره على ، وركبت راحلتى وتوجهت ، فكانت بجزيل لطف الله تعالى وفضله على من أحسن الرواحل وأجودها .

وحدثنى أيضاً بعض أصحابه ، قال : لما كان الشيخ برباط الفتح في زاوية الشيخ اليابورى كنا نتردد لزيارته والتبرك به ، قال : فكلفنى يوماً أن أسوق له كتاب رعاية المحاسبي ، قال : فلما كان بعد ذلك جنته به فطلبته في خلوته فلم أجده ، وطلبته في سائر الزاوية فلم أجده ، وكان وقت الصلاة وأردت الوضوء فتحيرت أن أباشر الوضوء والكتاب معي ، أو أتركه وأنصرف لشأني فأخاف عليه الضياع ، ولا في الزاوية إذ ذاك أحد غيرى ، فإذا بي أسمع حساً خلني ، فالتفت فإذا أنا بسيدي أبي العباس مبادراً يقول : هات ، هات ، فتعجبت من أين أقبل بسرعة ولم أره ، ومن أين عرف ما عندي ، فلما رأى تعجبي وما أصابني من أمره ، أشار لي بيده إلى ناحية الساحل ، ولم يفصح . أى أني كنت بالساحل من وراء الزاوية ، فعلمت أنها كرامة للشيخ رضى الله عنه ، ورجع إلى ذهني وازدادت رغبتى في بركته (١) .

وحدثنى بعض خواص أصحابه ممن كان مجاوراً له في درب فرات (٢) ، وهو الموضع حيث داره التي مات بها رحمة الله عليه ، قال : سمعت في بعض الليالي وأنا مجاور للشيخ حركة ورجة ، فتوهمت أنها حركة بعض أهل الدعارة وأصواتهم حول دار الشيخ ، فبادرت من فوري للخروج لأنظر ذلك ،

(١) هذا الفصل ساقط من ك . . أعنى من قوله : وحدثنى أيضاً . . الى . . في

بركته .

(٢) في ك : فوات .

وتوهمت أن يكون منهم من سوء الأدب بخطوره على محله على تلك الصفة ،
وخشيت أن يكون معهم خمر أو غير ذلك من المحرمات ، فلما أن بلغت إلى
باب داره بادرني من خلل الباب ومن أعلى الحائط ، نور كاد أن يغشى
بصرى ضياؤه ، فأدركني من ذلك دهش وخفت على نفسي ورجعت عليها
باللومة ، وقلت : يا نفسي تعرضين أنت لحراسة من الله حارسه ووليه ،
فلما كان بعد ذلك قصصت القصة على الشيخ ، فتبسم وقال لي : كان رجل يصلي
هنالك ، وأشار إلى مصلاه من داره فورد عليه شخص آخر وأشار بإصبعه
للهماء من جهة المغرب ، فكان ما رأيت ، كأنه يقول جاءه رجل من الهواء ،
فعلمت قدر الشيخ رضى الله عنه ، وازددت في بركته رغبة ، وبفضله يقيناً .
وكراماته رضى الله عنه كثيرة على شدة إخفائه لأمره وستره لحاله ، ولولا
أنه كان ينهى عن تتبع ذلك وصرف الهممة إليه لاستولى حفظ أصحابه على
الكثير من ذلك ، لكنه رحمه الله لم يزل يرفع الهمم لأرفع من ذلك ، ويقول :
غاية الكرامة الاستقامة ممن أكرمه الله تعالى ووفقه لتقواه . ويستدل بقوله
عليه السلام : «استقيموا ولن تحصوا» ، وهى كانت صفته وطريقته ،
وبذلك كان يأمر وإليه يندب ، فكان كثيراً ما يقول : ما ينبغي للمريد أن
ينام حتى يحاسب نفسه بما صنع في يومه ذلك ، فيتوب على الإساءة ويستزيد
الله في الإحسان ، ويقول : أما أنا فلا أنام إلا بعد محاسبة نفسي ، وبعد كتب
وصيتي حذراً من فجأة الأجل .

وله رضى الله عنه كلمات تدل على فضله ، وكان ربما أوردتها نادراً ،
منها قوله : لا ينبغي أن يشتغل بالنوافل إلا بعد عمل الفرائض ، وكان يقول :
الغش أصل كل خلق سوء ، وما أذكر أنى غششت قط مسلماً ، وكان يقول :
لا ينبغي لأحد أن يعمل بجهل ، وإنما العمل بعد العلم .

ولما أن كان الشيخ رحمه الله يحافظ على اتباع الورع ، فنجلب ما قيل
فيه ، وقد قيل : إن الورع مقام من المقامات العالية ، والأحوال الشريفة
السامية ، لما جاء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي هريرة رضى
الله عنه : «كن ورعاً تكن أعبد الناس» .

وأوحى الله سبحانه إلى موسى عليه السلام ، لا يتقرب إلى المتقربون
مثل الورع .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «والذى نفسى بيده ، لو صممت
حنى تكونوا كالأوتار ، وصليتم حتى تكونوا كالحنايا ، ما أغنى ذلك عنكم
شيئاً إلا بورع صادق» .

وقال سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه : كنا ندع سبعين باباً
من الحلال مخافة أن تقع في باب من الحرام .

وقيل : ملاك الدين الورع ، وآفاته الطمع .

وقيل : من در في الدين ورعه ونظره ، جل في القيامة قدره وخطره .

وقال الشيخ أبو القاسم القشيري رضى الله عنه : الورع ترك الشبهات .

وقال يحيى بن معاذ : الورع الوقوف على حد العلم من غير تأويل .

ولقد سمعت الشيخ رحمه الله ورضى عنه في جماعة من أصحابه غير مرة ،
يقول لشدة محافظته على توخى الورع : أنا أستغفر الله سبحانه إلى الآن من
مسألتين اتفقتا وأنا ببلاد الأندلس : وذلك أنى كنت يوماً راكباً حماراً ماراً
به على طريق بين زرعين عن يمين الطريق وشماله ، وكنت أنخوف هجمة
الحمار على شيء من ذلك الزرع ، فغلبنى مرة وأخذ شيئاً يسيراً ، وكنت
لا أعلم صاحبه فأستحل منه ، فأنا إلى الآن أستغفر الله لصاحبه ولى متى
ما ذكرت ذلك . ويوماً آخر كنت ماشياً في وقت الهاجرة على الطريق وقد
أجهدتى العطش ولا ماء هنالك ، فلقيت شاباً وبيده كوز ماء فاستسقيته
فسقاني ، فلفرط العطش نسيت سؤاله حتى شربت ، ثم سألته لمن الكوز ،
فأخبرنى أنه لغيره ، ولم يمكنى لقاء صاحبه ، فأنا إلى الآن أستغفر الله له ولى .

وأما تحفظه في منطقه فكانت حاضراً عشية يوم في داره وبعض أصحابه ،
فأمر رجلاً منهم أن يطلع على السطح لينظر هل غابت الشمس أم لا ، فاطلع
ثم قال له : ياسيدى بقى شيء لا شيء ، فرأيت قد تغير وجهه وكره ذلك ، ثم
قال له : يا صاحب - وكانت وصاياه : لا يكون كلام أحدكم عبثاً ولا يؤدى

إلى كذب - فقال ذلك وألحق به : إما أن تقول بتي شيء أو تقول غابت .
 وكان رضى الله عنه بعيداً من الهزل في دقيق الأمر وجليله ، فلقد حدثني
 غير واحد من إخوانه وأصحابه ، أنهم حضروا يوماً وقد ورد عليه وارد
 فأدخله داره وقال له : جز ، وأشار إلى صدر المجلس ، فقال له : ياسيدي
 الموضع موضعنا ؟ فقال له : يا صاحب ، هزل القول جد ، ولو قلت لك نعم
 لأخرجت الدار عن ملكي ، وذلك أسطع برهان على جد الشيخ في قوله
 وفعله . فالله تعالى ينفعنا ببركته عاجلاً وآجلاً بمنه وفضله .

٢ - ومن الطبقة الأولى : الصادق للهجة ، السالك على أهدي
 المحجة ، المنطلق أسرة الوجه عند بسط الحججة ، مؤثر الإيثار ، وأنس
 المرادين والزوار ، المكاشف بالمغيبات والأسرار ، معلم القرآن ، ومنور
 بصائر الشيب والشبان . الشيخ أبو محمد عبد العزيز الصنهاجي السلاوي
 الدار ، الغريق في الخير والصلاح ، فهو صالح ابن صالح ابن صالح ،
 وقبر والده بسلا يزار وتلمس منه البركة .

لقيته رضى الله عنه في السنة التي لقيت بها سيدي أبا العباس بن عاشر
 فبكرت به والتمست منه الدعاء ، فتلقتني بما يتلقى به أمثاله من عمر الله باطنه
 بالحق ، وحفظ طريقته بالصدق ، وأبدى على محله من أنوار السعادة أوضح
 الشواهد ، وكرمه بما أعانه عليه من معاهدة العبادة التي هي رأس المحامد ،
 فلازمت التردد له والاستفادة منه ، والرغبة في مقبول دعواته المباركة ،
 فأولاني من ذاك ما أرجو من فضل الله سبحانه خيره عاجلاً وآجلاً .

وحاله - رضى الله عنه - النهاية من دماء الأخلاق ، وسهولة
 الجانب ، ولين الانقياد للخير ، وإطعام الطعام ، وبذل الجهد في قضاء
 حاجات المسلمين ، وله خصائص وحالات ، تأخذ بمجامع القلوب ، فتقلب
 الأعيان للخير ، وفراصة صادقة يشتمل إشراق نورها على القريب والبعيد ،
 وله في البسط الباع المديد ، وقد قال أهل الطريقة : البسط مقام من مقامات
 فحول الرجال ، وكبار أرباب المشاهدات والأحوال ، ألبسه الله رداءه بعد

ما تقدمت له مشاق الرياضات ، وتحمل ثقل أعباء الاجتهاد ، ممن لا يقوى على حملها إلا موفق قوى ، كل ذلك مستفيض عنه على جميع الألسن ، ولقد سمعت منه بعض ذلك يقوله على جهة التشويق وتنبيه النفوس ، وما يتدرج إليه شيئاً فشيئاً ، مما يحسب الغافل أن يقدر عليه من وصال صيام وسياحة ، وخلوة وذكر وتلاوة ، اتصلت المداومة بطول السنين والأزمدة الكثيرة ، وما شاهده في توجهاته من العجائب ، وما رأى من الألفاف الشاملة ، ممن انقطع إلى باب الله الكريم ، وله حالات وخصائص يسلم لمثله من الأكابر فيها ، وكثيراً ما ينشد إذا استشعر من أحد عليه إنكاراً :

واخجلتني من قلبي القاسي وما جرى منه على راسي
العز موجود لمن يشترى وإنما المحنة إفلاسي
إن أنكروا دُفِيَّ وشبَّابَتِي وهز عطفي بين جُلَّاسِي
لاغرو أن أفتوا على علمهم فلمهم ما شربوا كاسي

ملاذ أنس الأنفس ، ومغنطيس راحة القلوب ، ومسجد الإجمام ، ما زال أهل جيله من العلماء والصلحاء يكثررون المواظبة لزيارته ، وكثيراً ما جمعهم مجلسه كالسيد أبي العباس بن عاشر فيما قبل أواخر عمره ، وهجيره : بالصفا ينال الخير ، كن صافياً يصف لك .

وله رضى الله عنه كرامات ظاهرة وأحوال سنية ، ولقد حكى لى جماعة من الأخيار ، قالوا : بتنا عند الشيخ عبد العزيز فأنشده منشد حسن الصوت ، فطرب الشيخ وتواجد كثيراً وبعض من حضر من أصحابه ، قال بعضهم : فوجدت في نفسي ما يجده الضعفاء مثلى ومن لا ذوق له بالطريقة ، فنظر إلى الشيخ بعد ما مر ذلك الخاطر ببالي نظرة منكرة فلم يزل الخاطر ، فأخذ يبدى وأقامنى من بين أصحابه ، وزجرنى على ذلك الخاطر ، فلم يزل ما في نفسي ، فأخرجنى من موضعه وهجرنى دهرأ ، وكنت أجيئ إليه والخاطر لم يزل ، ولا أستطيع أن أراه إلى أن تداركنى الله بلطفه ، ومن على برحمته ، وأزال ما كان في خاطرى فجئت مبادراً للشيخ ، فوجدته منتظراً

إلى ، فتلقاني بالقبول وحياني وأقبل على ، فحمدت الله سبحانه وجددت
ميثاق توبة لا أعود إن شاء الله أبداً لما كان مني من سوء ظني بمن له نصيب
وافر من جناب الله عز وجل .

وكان من المريدين حوَّات من أهل الخير والاستقامة ، يتعهده ويحسن
الظن به ويصطاد الحوت ، قال : اصطدت يوماً عشرة أحوات فوقع في
نفسى أن أهدي خمسة منها لسيدى عبد العزيز ، وخمسة لسيدى أبي العباس
ابن عاشر ، ثم تردد الخاطر في صدرى هل يقبل ذلك منى سيدى أبو العباس
لورعه وتحفظه أم لا ، فسبقت بها إلى سيدى عبد العزيز فأهديته ما أخرجته
برسمه ، فقال لى مكاشفاً : وأين حظ أخى أبي العباس ، فقلت له .
يا سيدى هو حاضر ، ولكنى خشيت ، فقال : بل سر إليه فإنه سيقبله
إن شاء الله ، فبادرت لدار سيدى أبي العباس فأدركته وهو خارج من
داره ، فقلت له : ياسيدى عساك تقبل منى هديتى هذه . ورميت دفع الحوت
إليه ، ففكر ساعة ثم قبلها منى ، فسررت بذلك ثم حمدت الله ، فقال :
تعود للصيداء اليوم ؟ فقلت له : إن أمرتنى بذلك يا سيدى ، فقال لى :
سر على بركة الله ، فانطلقت مسرعاً إلى مكافى الذى كنت أصداد فيه ،
فيستمر الله على فى ذلك اليوم من ذلك الموضع من الرزق ، شيئاً لا أصفه
وفوق ما كنت أعهد بأضعاف مضاعفة ، فاشتد سرورى وانطلقت إلى
سيدى عبد العزيز فأخبرته الخبر ، فقال لى : إن الشيخ أبا العباس كان قد
ورد عليه وارد واشتهى عليه الحوت فيسر الله عليه فيه على يدك ، فأعقبك
الله ذلك الرزق ، وما أعد الله جل وعلا لك فى الآخرة بمنه وفضله أعظم .

ولم يزل يحكى على المغيلى وهو شاب من السلاويين من أهل الخير معلم
لكتاب الله تعالى ، قال : دخلت يوماً على الشيخ سيدى عبد العزيز أنا
وبعض أصحابنا على عادتنا من زيارته ، فبنفس ما وقع بصره على دفع إلى
دراهم ، وقال لى : سر مسرعاً بهذه إلى والدتك ، وكنت منذ يومين
ما رأيت والدتى لسبب كان شغلنى عن ذلك ، قال : فبادرت إلى ما ذكر
فوجدت والدتى كان أضربها بالجوع لغيبتى ، وهى فى غاية الاضطراب ،

وقد كثر وجدها على ، فساعة ما رأيتها ، دفعت إليها الدراهم وقصصت عليها القصة ، واسترضيتها فرضيت عني والحمد لله ، وكل ذلك ببركة الشيخ وإطلاعه بأمور إخوانه نفعنا الله به .

وكان أحد الفضلاء من أصحابه يقول : أتيت سيدى عبد العزيز متبركاً ، وكان زمن الصيف ، ومن عادة الشيخ أن الزائر لا ينصرف إلا عن ذواق (١) ، فقلت فى هاجس خاطرى قبل أن أصل إليه : إن الشيخ لا ينصرف الزوار عنه إلا عن ذواق ، وهذا زمن الصيف ووقت الهجرة ، وأنا على إثر رياضة وتعب ، ولعله يقدم لى خبزاً وعسلاً فتضرنى حرارة العسل ، ثم راجعت نفسى وقلت : إن كل ما يقدم الشيخ إن شاء الله لا يضر ، ولعله لا يقدم ذلك ، قال : فدخلت عليه فى داره فسلمت وجلست ، فنظر لى متبسماً وأتى بخبز وعسل ، وصار يغمس الخبز فى العسل بيده ويناولنى ويقول لى : كل . ولا بأس عليك إن شاء الله ، فوالله لقد أكلت حتى تملئت ، فما ضرنى والحمد لله شىء ، ولا أنالنى الأكل إلا خيراً ببركة الشيخ ، وتنوير باطنه .

وحاله رضى الله عنه كله عجب ، وقدره معروف وبركته ظاهرة ، وقد قيل : إن البسط غاية الرجاء ، كما أن القبض نهاية الخوف ، وهو علامة الأنس ودليل القرب ، ولا يحفظ حاله فيه إلا كبير معتنى به فإنه مزلة الأقدام ، والبسط ضد القبض ، وهما حالان تثيرهما الرغبة والرغبة ، ولا قيام لأحدهما إلا بصحة الآخر ، قال شيخ الطريقة أبو القاسم الجنيد : الخوف يقبضنى والرجاء يبسطنى ، والحقيقة تجمعنى والحق يفرقنى ، إذا قبضنى بالخوف أفنانى ، وإذا بسطنى بالرجاء ردفنى على ، وإذا جمعنى بالحقيقة أحضرنى ، وإذا فرقنى بالحق أشهدنى غيرى فأقصانى عنه ، فهو فى ذلك كله محركى ومسكنى ، وإذا فتح الله تعالى للعبد باب البسط كان

(١) أى الا بعد أن يتناول شيئاً من الطعام ، والدواق : المدوق يقال : ماذقت ذواقاً أى ما أكلت شيئاً .

أحوج ما يكون للأدب ، وقيل : إذا انبسط الولي شملته الرحمة واتصلت منه بالصدق والعدو ، وقيل : من لقي مبسوطاً في حاله بلغ منه جميع آماله .

٣ - ومن الطبقة الأولى : الحميد المناقب والحلال ، الممدود في جلة أمثال الرجال ، الموصوف بفضل المحبة وزكاء الأفعال ، الظاهرة على حمله مخايل سنا الأحوال ، المقبل في كل أحيانه على عبادة مولاه ، معلم كتاب الله ، أعف من زرت عليه في جيله من الطهارة الجيوب ، الشيخ المبارك أبو الحسن علي بن أيوب ، الخطيب برباط الفتح ، تبركت به رضى الله عنه في السنة التي تبركت بسيدى أبي العباس بن عاشر فيها ، وواظبت على التردد إليه لحضار المتعلمين^(١) بين يديه فدعاني لداره في عدد من المتبركين ، فأمتع الله من إفادته العلمية ونصائحه الدينية بما يجريه الله على ألسنة الأخيار المتقين من عباده الصالحين ، مشوباً بكثرة الحياء والحشمة وشدة الخوف والخشية ، ولزوم أطراف الفكرة ، فلا يكاد معها أن يصعد طرفه عين ، ولا أن ينقل إنسانه^(٢) من أين إلى أين ، وأن للقلوب أن تنفطر بما أوجده الله سبحانه ببركته من امتعاض البصائر ، وحق للأشواق أن تحرق بشرها المتطائر ، أخبرني غير واحد ممن يعرفه قديماً أنه كان في بدايته مفراطاً في الاجتهاد ، مواصلاً أطراف النهار بأواخر الليل في عبادة رب العباد ، على طريقة الأعلام ، فأنته إلى ما قسم له من عناية ذى الحلال والإكرام مغبوط الأحوال والأقوال ، معروف المهمة إلى منهاج خيار الأمة ، وله كلمات تدل على تمكن فضله وتنوير علمه ، يقول : من لم يفتح له من القرآن مشرب لا يروى أبداً ، ومن قوله : اتباع السنة في الرخص خير من ارتكاب الاجتهاد بالبدعة ، ويقول : بالرحمة والرفق أدركت الأشياء العالية لا بالعنف والمشقة ، ويقول : من ظن الحق في غير القرآن ضل ، ومن طلب الوصول على غير طريق السنة لم يصل أبداً ، ومن صفا له وقت دخل

(١) الحضار في اصطلاح الغاربة هو الحضور لدى معلم ، لذلك يطلق هذا اللفظ على المكتب ويقال للتلميذ محضري .
(٢) أى انسان عينه .

الباب . وهو كثير الذكر مواظب على الخير ، تال لكتاب الله تعالى ، مشغول بالعلم ، والغالب عليه جميل الظن وحسن الرجاء بما عند الله سبحانه من خير ومغفرة .

وقد قيل : إن الرجاء مقام من مقامات المتقين ، وحالة شريفة موصوف بها أهل الفضل والدين .

وفي حديث أبي الدرداء رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، عن جبريل عليه السلام قال : « قال ربكم عز وجل : عبدى متى ما عبدتنى ، ووحدتنى ، ولم تشرك بى شيئاً غفرت لك على ما كان منك قبل ، ولو استقبلتنى بماء الأرض ذنوياً وخطايا استقبلتك بمثلها مغفرة فأغفر لك ولا أبالى . »

والرجاء تعليق القلب بمحسوب سيحصل فى المستقبل ، وبالرجاء عيش القلوب فهو غذاؤها ، والفرق بين الرجاء والتمنى ، أن الرجاء مؤاخ لجد العمل والتمنى مطية الكسل ، والاجتهاد ينمى رجاء العباد ، والتمنى يزرى به التسويف إلى بلوغ النفاد ، فهذا لتحصيل فائدته محمود صراطه المستقى ، وهذا لخيبته مذموم .

وقال ابن جبير : الرجاء ثلاثة : رجل عمل حسنة فهو يرجو قبولها ، ورجل عمل سيئة ثم تاب فهو يرجو المغفرة ، والثالث الرجاء الكاذب يتأدى فى الذنوب ويقول أرجو المغفرة .

وقد قال على رضى الله عنه : الأمانى بضائع النوكى (١).

وقال الشيخ الدقاق : الرجاء والخوف كجناحى طائر إذا استويا طار الطائر وتم طيرانه ، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص ، فإذا ذهب صار الطائر فى حد الموت .

وقيل : إذا اعتدل رجاء المؤمن وخوفه استقام ، كما جاء : لو وزن رجاء المؤمن وخوفه لا اعتدلا . والله أعلم .

٤ — ومن الطبقة الأولى المشدود عرى الاعتزام ، فى مصالح الإسلام ، القائم على حجج التبليغ حق القيام ، الذى لم ير فى مدلهات المهمات بنائم ،

(١) النوكى جمع أنوك وهو الاحمق .

ولا تأخذه في الله لومة لائم ، فيلتمس إحسانه فاجر وبر ، ولا يغيب عن قلبه أن في كل كبد رطبة أجر ، يخلص في الحق ويناوى ، ويعالج جراحات الطائرات فيداوى ، الشيخ أبو عبد الله محمد بن موسى الحلقاوى ، من مدينة إشبيلية ، نزل فاساً وبها أدركه محتوم الأجل سنة ثمان وخسين وسبعائة ، كان له رضى الله عنه إذن في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حسم به أدواء الفساد ، وقمع الأشرار عن بغيتهم المعتاد ، يقابل بخاطر ماض ، وفراصة صادقة ، على الهمة ، شديد الحزم ، وله شأن معروف مع مولانا الخليفة أبى عنان رضوان الله عليه وحكاية مشهورة إذ كان يعظمه ويؤثره ويعينه على الأخذ على أيدي المعتدين المرتكبين ما نهى عنه الدين ، والإيثار على الضعفاء والمساكين ، وربما تكفلت صدقته بجميع مؤن المحتاج من قوت ومن لباس مستوفى الجزئيات في الدفعة الواحدة ، فيكفيه السؤال طويل مدة ، ليمتعه بالانتفاع بنفسه من توجه لعبادة أو استنهاض لكسب ، ويصل تحنث عبادته بالطواف على الفقراء والمحتاجين في الحضرة ، ويتفقد بالفواكه الرطبة واليابسة في أوانها من تميل إليها نفسه فلا توصله المتربة إليها ، يتناع منها الكثير متى أظل زمانها وتمكن إبانها ، ويضعها في حانوته بالحلقاوين من فاس ، ويحتمل نهاية ما يقدر على رفعه على رأسه ، فيقصد به المظان إلى أن يفرغ الوعاء ، فيعيد امتلاءه فيلحق تطفه الضعفاء بالأغنياء ، في استطعام شهوات ما أنعم الله به على خلقه ورزقهم من طبياتها ، ويبعث العيون للبوادي فيعاني بها المرضى ، ويلين لهم خشن العيش ، ويرفق بالمتخذ من الحيوان والمألوف ، وأعد لذلك داراً يجمعهم فيها ويناولهم بيده ، وكان لا تبصر له بطانة ، ولا تعرف له عن آجتهاده مهلة ، دائم الاشتغال ، متوالى العمل ، محكباً على ما أمله من مقاصده جلدأ على ملتزماته ، قاطعاً علائق ما يدخل عليه شائبة أو يصرف باله إلى ما لا يعنى به . ومن ذلك ما اشتهر من حديثه فعلمه الكثير ، أن ملاصق داره من جيرانه كانت له زوجة جهيرة الصوت عالية الكلام ، فكان متى استقر بداره حشا أذنيه قطعاً تحفظاً من سماعها ، فلا يزال طول مكثه بداره على تلك الحالة ، إلى أن يفارق داره فيزيل عن أذنيه ، ديدناً لا يفارقه ولا يغفل عنه ، واتصلت مجاورتهم نحو عشرة أعوام .

أخذ طريق التصوف عن الشيخ يعقوب الزيات من أهل فاس ، وكان
من له قدم في الطريقة ولسان صدق ، وكان والد سيدي أبي عبد الله
أيضاً له حظ وافر من الخير ومحبة مع الفضلاء ، واتصال الألفة بهم والاطلاع
على خصائصهم ، فكان له صاحب منقطع للعبادة بجامع الزيتونة من داخل
باب الفتوح ، مواصل الصوم والصلاة والذكر والخيرات ، واصل مرة
ثلاثين يوماً ، فلما انتهى العدد الذي كان في نفسه ، اشتبهت عليه نفسه أن يفطر
في تلك الليلة حساء حمص بسمن وبصل وسمن غنمي^(١) ، قال : فلما كان
العشا جاءني سيدي أبو عمران موسى وسيدي أبو عبد الله الحلفاوي بما اشتبهت
من غير وعد ولا طلبه مني . ولم يكن يعلم بصومي أحد غير الله سبحانه ،
فقال لي يا أخني طاوعتك كثيراً فطاوعها قليلاً ، يعني نفسه فيما اشتبهت .

وللشيخ أبي عبد الله كرامات ، حدثني غير واحد من أصحابه ، أنه
كان رجل من أهل الخير من أهل بني بسيل ، كان من أكبر أمنياته على
الله تعالى ورغبته من إحسانه ، ألا يميته حتى يريه ولياً من أوليائه ، قال :
فرايت ذات ليلة النبي صلى الله عليه وسلم ، وخلفه رجل لم أكن رأيت قبل
ذلك ، فقال : يا فلان أتريد أن ترى ولياً من أولياء الله تعالى ؟ فقلت :
نعم ، ومن لي بذلك يا رسول الله ؟ فأشار إلى ذلك الرجل خلفه ، وأعلمني
أنه من أهل فاس ، قال : فاستيقظت فرحاً مسروراً ، فلم أستطع أن أرجع
لنومي فقممت وأدبجت سراي ، وسرت فوصلت لفاس مع حل باب البلد ،
فدخلت وبلغت الجامع الأعظم ، فأول من لقيت ممن أعرف ، الشيخ
الحلفاوي ، فنظر إلى وتبسم وقال لي : يا فلان أظنك تريد أن ترى
صاحبك ؟ قلت له : نعم يا سيدي ، وعلمت أنها منه مكاشفة ، فقبض على
يدي وانطلق بي لحاوته فأقعدي بجانبه ، وأقبل بمحادثتي ويؤنسني على ما بي
من إفراط القلق لما وعدني به حتى ارتفع النهار وأقبل إليه أصحابه على العادة ،
فكان آخر وارد عليه صاحبي الذي رأيت في النوم ولم أكن أعرفه معه قبل
فلما رأيت عرفته ، فابتدرني وقال لي : أهو هو يا فلان ؟ قلت : نعم ،
وأقبلت عليه فقبلت رأسه ويده في سلامي عليه .

(١) في ك : وخبز مختمر ، عوض وسمن غنمي .

وكان رجل من الفضلاء ، كانت له زوجة سوء تكلفه فوق طاقتها ، فلما وصل عيد الأضحى كلفته أن يشتري للتقرب بقرة ، ولم يكن عنده إلا ما يشتري به كبشاً ، فاستعذر لها وقال لها : والله ما أملك إلا ثمن كبش ، فأغلظت له في القول ، وألحت عليه في شراء البقرة ، وهددته بما لها قبله ، وكان لها قبله دين ثقیل ، فخرج مهموماً كئيباً ، قال : فسرت مفكراً حزيناً لا أدري ما أصنع ، فررت بحانوت سيدى أبى عبد الله الحلفاوى ، ووالله ما اطلع على ما وقع بيننا أحد ، فلما طرفنى ^(١) الشيخ تبسم إلى واستدعاني بتلطف ، ودفع إلى ثلاثة دنانير من ذهب ، وقال لى : سر وأزل كلفتك بهذه ، واشكر الله سبحانه على التيسير عليك .

وكان رجل من طلبة مدرسة الحلفاوين كثيراً ما ينكر على الشيخ وينتقد عليه جميع أفعاله ، إلى أن بلغ عليه الأمر في ليلة من الليالى سهرها يصنع هجواً فى الشيخ وكتبه فى لوح ، قال : فلما آذن الله لسيل الصباح أن يتفجر ، مررت بالشيخ فى حانوته فقال لى : يا فلان ألا تتقى الله ولا تقل إلا ما تعلم صدقه وتمحو اللوح ، فعلمت أن الله سبحانه أطلععه عليه وأنه رجل منور البصيرة ، فبادرت وقبلت يده واستغفرت الله سبحانه .

وكان رجل بإزاء الشيخ يوماً فى مجلس الذكر والموعظة ، فسمع الشيخ كلمة من الذكر نالت منه ، فصاح - وكانت عادته - فأنكر ذلك الرجل عليه فى نفسه ، قال : فالتفت إلى الشيخ وقال لى : يا أخى ألا ترى بعضكم إذا ضاع له شئ نفيس يعز عليه فقده ثم وجده فجأة كيف يصيح ويزعق ، قلت : نعم يا سيدى ، قال : فكذلك من لم يكن له مطلب إلا الحق متى وثق رجاءه صاح وزعق . وكان حافظاً للقرآن ولكثر من الحديث ، ذاكر ألفقه العبادات ، باحثاً على مسائله كل البحث ، آخذاً فى ذلك كل مأخذ ، مستفتياً أهل العلم فيما يعرض له ما لم يكن خصله ، وخصوصاً الفقيه السطى ، فعندما تعن له مسألة يبادر إلى منزله ويرده عليه ليلاً كان أو نهاراً ، فكان أصحابه يتعجبون من بحث الحلفاوى ، وصبر

(١) الصواب : طرف الى أى ابصرنى ..

السطى لبلوغهم الغاية القصوى ، إلى ما كان عليه من قبض القدم من اجتماعات العرس وحضور الخناثر . والتعلق بالجوذ باباً من أبواب الرحمة ، فقد أنزل الله الحمد به في قرآنه المجيد تشريفاً لهذه الأمة ، فقال : (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) (١) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « السخي قريب من الله ، قريب من الناس ، قريب من الجنة ، بعيد من النار . والبخيل بعيد من الله ، بعيد من الناس ، بعيد من الجنة ، قريب من النار ، والجاهل السخي أحب إلى الله من العابد البخيل » .

وقد قال العلماء رضوان الله عليهم : إن الجود هو السخاء ، لأن الله تعالى يوصف بالجود ولا يوصف بالسخاء ، كما يوصف بالعلم ولا يوصف بالعقل ، وحقيقة الجود ألا يصعب عليه بذل . والسخاء عند المتصوفين أول الرتب ، ثم الجود بعده ، ثم الإيثار ، فن أعطى البعض وأبقى البعض فهو صاحب سخاء ، ومن بذل الأكثر وأبقى الأقل كان صاحب جود ، ومن أثر غيره على نفسه كان صاحب إيثار . والسخاء بذل لا تتبعه علاقة ، والجود سخاء صدقت فيه اللهجة ، والتذت بموقعه نفس المعطى ، والإيثار قضاء أوجب إمضاءه حسن اليقين .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا ابن آدم ! مالك من مالك إلا ما أكلت فأنفيت ، أو لبست فأبليت ، أو أعطيت فأمضيت ، وما تركته فلوارث » .

وقالت الحكماء : أيها الجامع لا تتخذ عن ، فالماكول للبدن ، والموهوب للمعاد ، والمُستسك للعدو .

وقيل لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : من السيد ؟ ، قال : الجواد إذا سئل ، الحلیم إذا استجهل ، الكريم المجالسة لمن جالسه ، الحسن الخلق لمن جاوره .

وكان أسماء بن خارجة يقول : ما أحب أن أرد أحداً عن حاجة ، لأنه إن كان كريماً أصون عرضه ، وإن كان لثيماً أصون عنه عرضي .

(١) سورة الحشر آية ٩ .

وقال ابن عباس رضى الله عنه : لا يتم المعروف إلا بثلاثة : تعجيله وتصغيره وستره ؛ إذا عجله فقد هناه ، وإذا صغره فقد عظمه ، وإذا ستره فقد تممه .

وقال حكيم بن حزام : ما أصبحت قط صباحاً لم أر بياني صاحب حاجة ، إلا عدتها مصيبة أصبتها .

وقال بعض الحكماء : المحاسن كلها متولدة عن الكرم ، وخصال الخير من فروعه ، والمحامد ثمره .

٥ - ومن الطبقة الأولى : الشيخ العابد ، المجتهد الزاهد ، الصوام القوام ، المنقطع لعبادة ربه مدة ما أهملته الأيام ، وتراخت له السنون والأعوام ، الحاج المبارك أبو الفضل ، محمد بن أبي مدين العثماني . كان رحمة الله عليه من مجتهدي الزهاد ، وأخيار العبّاد ، انتفع في رحلته للمشرق بلقاء المشايخ والأكابر ، فتنور ببركتهم الظاهر والباطن ، معروف القدر مشهور البركات من أهل العلم والورع والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة ، رحل إلى المشرق ورأى الناس ولقى الأعلام وأخذ عنهم ، وله رحلة أحكم تصنيفها ، ووصف فيها عجائب ما رأى وفوائد ما جمع ، ثم انتقى عليه مآثور تهذيب وحميد ترتيب ، وله كلمات تدل على فضله وكبير قدره . حدثني غير واحد من صحبه وخالطه ، أنه كثيراً ما كان يقول : لا بد في الطريقة من شيئين : الزهد والمجاهدة .

وكان يقول : إنما الخير خير الآخرة ، فهو الخير الدائم الذي لا يبلى ولا ينقطع .

وكان يقول : من سُدّ دونه باب التوكل فقد شقى ، ومن فتح له باب حسن الظن بالله فقد رقى .

وكان يقول : الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم مفتاح باب البركة ، وتحت اليقين ببركتها خزائن الألفاف .

وكان يقول : ريض نفسك بالآداب الشرعية ، تبلّغك للحضرة القدسية .

وكثيراً ما كان يتلو : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) (١) . ويقول للمريدين : قد عرفنا الله أشرافنا وأهل الفضل منا في هذه الآية .

وكان رحمة الله عليه كثير التواضع حسن الأخلاق ، يأسر الطعام ، رحياً بالمساكين ، شقيقاً على المستضعفين ، محبوباً مع شدة انقباضه وتوحشه ، يؤثر الزهد . فكان أصحابه يدعونه بأبي الفضل الزاهد ، وما كحب الزهد منقبة . فقد قال صلى الله عليه وسلم : « إذا رأيتم الرجل قد أوقى زهداً في الدنيا ومنطقاً فاقتربوا منه فإنه ينطق بالحكمة » . وقال أحمد بن حنبل : الزهد على ثلاثة أوجه : الأول ترك الحرام وهو زهد العوام ، الثاني ترك فضول الحلال وهو زهد الخواص ، الثالث ترك ما يشغل العبد عن الله وهو زهد العارفين .

قيل : إذا زهد العبد في الدنيا وكل الله به ملكاً يغرس الحكمة في قلبه . وقيل : من جمع ثلاث خصال كان من الأولياء ، الزهد في الدنيا ، وكرم النفس ، وبذل النصيحة لجميع الخلق .

وقال الفضيل بن عياض : جمع الله سبحانه الخير كله في بيت ، وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا . وجمع الشر كله في بيت ، وجعل مفتاحه حب الدنيا .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حب الدنيا رأس كل خطيئة » . الزهد من علامة الثقة بالله .

وقد قيل : من صدق في زهده ، أته الدنيا راحة .

٦ - ومن الطبقة الأولى : الشيخ التقي المشرح الصدر ، الكبير الجلالة والقدر ، صاحب المعارف والفهوم ، المطلع على كثير من الأسرار والعلوم ، مقتنى آثار الأولياء مقاماً ومقالاً ، الشيخ الصالح أبو عثمان سعيد ابن توالا ، مكناسي الدار ، كان رحمة الله عليه عالماً عاملاً ، صالحاً فاضلاً ، من المتخلفين بأخلاق أولياء الله المهتدين ، ومن عباد الله العباد المجتهدين ،

معروف الحالات ، مشهور البركات ، مبسوط اللسان بالرحمة ، كثير الحشية كثيف الحشمة .

حدثني غير واحد من فضلاء من والاه ، وعرف سيره وتقواه ، قالوا : لقد رأينا من سر الشيخ رضى الله عنه ، في مدة موالاته أحوالا لا تصدر إلا عن خدمة المجتهدين ، وتنوير قلوب المهتدين من عبودية الأخلاق ولين الجانب ، وحسن التربية ، والحذق بالأدب الذى يثمر فى القلوب العجائب ، وكان يؤنس من أتاه وييسط نفسه إليه بشمول رحمة الله ، ويحب إليه تقواه ، ويبدصره بما فى الرضى بقضائه وقدره بما يفسح فى الأجل وتحمده عقباه ، حتى لا ينصرف من يرد عليه إلا ولا شئ أحب إليه من التسليم .

وقال بعضهم : كنت أتمس مرضاته من جميع وجوهها ، فحن إلى غاية الحنين ، ومكنى من القرب إليه غاية التمكن ، ولقد استرضيته يوماً فرضى عني ، وانبط وانشرح إلى ، وتهلل وجهه المبارك وانطلق بالحكمة والرحمة لسانه ، فقال لى : حبيبى أنت خدمتنى لوجه الله تعالى وأحببتنى من أجله ، أشهد الله وملائكته ورسله وإياك ، أنه إن قيل لى فى القيامة يا سعيد ، قم فانطلق للجنة مغفوراً لك أن أقول : يا رب عبدك أحبه فلان وخدمه وأنس إليه من أجلك ، وقد ضمنت له إدلالاً على فضلك وجودك ألا أدخل دار كرامتك إلا صحبتك ، ثم قال عن قليل : أبشر نرجو الله سبحانه يا أخى أنه قبل ذلك ، وشفعنى فيك ، فوالله ما كان بعد ذلك إلا زمان يسير ، حتى مكن الله الخير من قلبى ، وصرف عنه الشر جملة ، وأنا إلى الآن على تلك الحال وأرجو الله أن أصير إلى ما وعدنى الشيخ رضى الله عنه .

وكان من أهل الزهد والتقشف ، حدثني بعض ثقات المكناسيين أنه كان جالساً يوماً مع الشيخ رحمه الله ، فدخل عليه رجل ويده فاحشة ، أو قال إجاصة ، فظفر إليها الشيخ وقال : سبحان الله ، لى نحو العشرين سنة ما أكلت ذلك أو مثله . وكان كثير الاجتهاد فى قضاء حوائج المسلمين : فقل من يأتبه فى شئ إلا ويقضيه الله سبحانه على يديه ، وكان له حظ وافر من المعرفة بتوحيد الله عز وجل .

وعن عائشة رضى الله عنها ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
«إن دعامة البيت أساسه ، ودعامة الدين المعرفة بالله عز وجل واليقين والعقل
القامع» .

وقال الشيخ أبو على الدقاق : المعرفة على لسان العلماء هى العلم ،
فكل علم معرفة ، وكل معرفة علم ، وكل عالم بالله عز وجل عارف ، وعند
أهل الطريقة الصوفية : المعرفة صفة من عرف الحق سبحانه بأسمائه وصفاته ،
ثم صدق الله فى معاملاته ، ثم تنقى عن أخلاقه الرديئة وآفاته ، ثم طال بالباب
وقوفه ، ودام بالقلب اعتكافه فحظى من الله بجميل إقباله ، وصدق الله فى
جميع أحواله ، وانقطعت عنه هواجس نفسه ولم يصغ بقلبه إلى خاطر يدعوه
إلى غيره ، فإذا صار من الخلق أجنيا ومن آفات نفسه برياً ، ومن المساكنات
والملاحظات تقياً ، ودامت فى السر مع الله تعالى مناجاته ، وحق فى كل
لحظة إليه رجوعه ، وصار عبد الله عز وجل يعترف إليه بالتسليم فيما يجربه
من تصاريف أقداره ، يسمى عند ذلك عارفاً ، وتسمى حالته معرفة .

وقال الشبلى : ليس لعارف علامة ، ولا لمحب شكوى ، ولا لعبد
دعوى ، ولا لخائف قرار ، ولا لأحد من الله عز وجل فرار .

وقيل : من عرف الله عز وجل صفاً له العيش وطابت له الحياة ، وهابه
كل شيء ، وذهب عنه خوف المخلوقين ، وأنس بالله عز وجل ، وذهبت
عنه رغبة الأشياء ورهبتها .

والمعرفة توجب الحياء والتعظيم ، وقيل : أركان المعرفة الهيبة والحياء
والأنس .

٧ - ومن الطبقة الأولى : الكثير الخوف والخشوع ، المواصل
السجود والركوع ، القوام بالليل وقد لاذت الحواس بالهجوم ، الصابر
فى ذات الله على ما يقاسى ، الشيخ الفقيه الخطيب أبو الحجاج يوسف بن عمر
الأنفاسى ، كان رحمه الله من جلة الفقهاء العاملين ، وأكابر الفضلاء
من أهل الدين ، صام حتى نخل جسمه ورق جلده ، وقام حتى تورمت

قدماء ، وله عراقة في الفقه والصلاح ، فهو فقيه وصالح ابن صالح .
ومن كلامه : أفضل العبادات المراقبة وحفظ الحدود ، وكان يقول :
ما أتعب العاصي ! يطيع هواه وشيطانه ونفسه ، وهم يكلفونه فوق طاقته ،
والطائع لا يطيع إلا الله ، ولا يكلفه إلا ما يستطيع ، وكان رحمة الله تعالى
عليه مهما بمصالح المسلمين .

حدثني غير واحد ممن يعرف سيره وأخلاقه ، أنه كان إذا جن الليل
يخرج من داره التي يسكنها ، وهي الحبسة على الأئمة بالجامع الأعظم بفاس ،
فينظف الجامع وينظر في مصالحها (١) ويباشر ذلك بنفسه قربة لله عز وجل .
ومن بركاته ما استفاض عنه أنه ورد عليه ليلة من الليالي جماعة من
الأضياف ، وكان قد صنع لبطاره قدر ما يقتاتة إنسان من الكسكسو (٢) فلما
حضر بين يديه وضع يده على أعلاه وذكر اسم الله سبحانه وقدمه إليهم ،
فأكلوا منه بأجمعهم حتى تملوا ، وفضل له من بقيتهم قدر كفايته رضى الله عنه .
ولم يفارقه خوف الله عز وجل والخشية منه ، وقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم : « لا يدخل النار من بكى من خشية الله حتى يعود اللين
في الضرع » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا
ولبكيتم كثيرا » .

وقال أبو القاسم القشيري : الخوف معنى وتعلقه في المستقبل ؛ لأنه إنما
يخاف أن يحل به مكروه أو يفوته محبوب ، ولا يكون هذا إلا بشيء يحصل
في المستقبل ، فأما ما يكون في الحال موجود فالخوف لا يتعلق به .
وقال الشيخ أبو علي الدقاق : الخوف على ثلاث مراتب : الخوف
والخشية والهبة ، فالخوف من شروط الإيمان ، والخشية من شروط العلم ،
والهبة من شروط المعرفة .

(١) استعمال عامي لأن « الجامع » مؤنث في اللهجة المغربية وقد تركناه على أصله
للدلالة على أن ذلك منذ القرن الثامن .

(٢) هو الطعام المغربي المشهور ويقال له اليوم : سكسو .

وقال إبراهيم بن شيان : إذا سكن الخوف القلب أحرق مواضع
الشموات منه ، وطرده رغبة الدنيا عنه .

٨ - ومن الطبقة الأولى : الفقيه العابد التقى الزاهد ، الكبير الشأن
والحال ، العظيم القدر والجلال ، المطلع على ما منحه الله من السر المصون ،
والعلم المكنون ، الكثير البركات والمعالى ، الشيخ الفقيه الصالح ، أبو محمد
عبد العالى الأغزوى .

انقطع إلى الله تعالى على سنن الورعين والعلماء العاملين ، واحداً في
متعبه بلاده بين أهله بأغزوة من أرض نهمارة على وتيرة واحدة ، وعمل
مستدام وتوجه متصل ، لا يخرج من داره إلا إلى صلاة العيدين ، وأيام
تعد له قلائل ، ومن أتاه زائراً استؤذن عليه فربما أذن له في الدخول عليه في
خلوته ، فلا يزال متحدثاً في فنون حمة من العلم ، فكان إذا أخذ في باب
من العلم سرد جميع مسائله ، فيقال إنه لا يحسن غيره لفقهه فيه ، وحسن تعليمه
ووضعه ، وربما كان يتكلم فيسترسل به الكلام في أبواب من العلم لم يسمع
بمثلها ، ثم يعطف فيرجع لما كان بسبيله .

سمعت بحضرته بعض أصحابه يقول : قطع الشيخ نصف عمره المبارك
في قراءة العلم ، ونصفه في العمل به ، وتوفى رحمة الله عليه وقد نيف على
الثمانين ، سنة تسع وستين وسبعائة .

وأما كرامته رضى الله عنه وبركاته ، فامثل السائر والخبر المتواتر ،
آثر رحمة الله عليه ورضوانه الخلوة والعزلة ، وقد قال أهل العلم من أهل
التصوف : الخلوة صفة أهل الصفة ، والعزلة من أمارات الموفقين الجلة ،
ولا بد للمريد في ابتداء أمره من العزلة عن أبناء جنسه ، وقيل : إذا أراد الله
عز وجل بنقل العبد من ذل المعصية إلى عز الطاعة ، أنسه بالوحدة وأغنائه
بالقناعة ، وبصره بعيوب نفسه ، ومن أعطى ذلك فقد أعطى خير الدنيا
والآخرة .

وقيل : من علامات الابتلاء الاستئناس بالناس .

وقيل السلامة في العزلة .

(كمل من تعين ذكره في الطبقة الأولى والحمد لله على تيسيره) .

٩ - وأول الطبقة الثانية : الشاب الصالح ، الذي لم تعرف لشبابه صبوة ، ولا لعزمه في الاجتهاد نبوة ، المشمر عن ساعد الجذم التشمير ، والمقبل على ما يجده عتاداً في دار الجبور ، تلميذ الشيخ سيدي أبي العباس أحمد بن عاشر رحمهما الله ، الأنجب ، وخلاصته الأخص لديه المقرب ، أبو عبد الله محمد بن الشيخ الفقيه الصالح ، القاضي في الأحكام الشرعية بسلا . أحمد الزهرى .

ظفر من صحبة الشيخ بالعلق الثمين ، فشد عليها يد الضنين ، وأخذ عنه جميع محمولاته ، فنصححه الشيخ وآثره بتعليمه ، فكانت له مزية ظاهرة ، وإنابة أنوارها باهرة ، ومعرفة زينها تنوير البصيرة ، وحفظها حسن السريرة ، ففاق لداته وأترابه ، وأعلمت الديانة والعفاف أثوابه ، فأصبح منقطع القرين ، تسمه العناية المتلاثلة على أسرة الحبين ، عاجله الأجل في أوائل سنة أربع وستين وسبعائة ، رحمة الله عليه . وبسببه تم للشيخ من الحلوة بداره كمال مقصوده ، إذ بذل فيه غاية مجهوده ، فقام على شؤونه أكفى القيام ، ونهض بأعبائه ، فكمل له غاية المرام ، واستعان على ذلك بمجاورته وقرب سكناه منه ، إذ كان يشملها درب واحد ، فاقتنى أثره واتبع طريقته من التقشف ، فلبس المرقع ، واستغنى من القوت بما يبق الرmq ، ورفض ما دون ذلك ، فلم يحتو بيت سكناه إلا على مصلاه لا يسعه سواه ، أخبر متولى تجهيزه أنه ألنى عظام وركيه قد انجرح لرقاده على الحصير ، وكان من اجتهاده ينام على لوح خشب مضطرب خشية أن يكون ممهداً فيستغرق في النوم ، فتكيف اضطراب اللوح ليقظته متى طلبت الجوارح كمال الاستكانة يعارضها الاضطراب . فقام لشأنه من عبادة ربه وقرائه ومطالعة وما يخصه .

وكان رحمه الله مجبولا على الحزم يقظاناً ، له فضل قوة وصلابة زائدة ، وتصميم في الدين ، ونيل وإدراك في العلم ، وكان من أعظم شغله وكسبه ،

انتساخ الكتب التي كان الشيخ رضوان الله عليه يؤثر قراءتها ، ويأمر بنسخها وتصحيحها وضبطها ، فاستغرق فيها أكثر أوقاته ليلاً ونهاراً ، وكان مع ذلك جواداً يؤثر لإخوانه على نفسه بما يخصه ، وكان حافظاً لأمر دينه شديد الحوطة مدتراً في مِرْقَعَةٍ إن أصابها شيء بالغ في طهارتها ، لا يبالي ببللها عليه في كلب البرد وتوالي الشتاء ، تدوم له المعاناة من ذلك الأيام فيطاولها بالصبر الجميل ، وكان يتناول أمر معاشه بيده ، ويحمل عن الشيخ من ذلك شيئاً في بعض الأوقات ، وما كان يعد شيئاً من عبادته أعظم من خدمته شيخة واسترضائه بجميع وجوه مرضيه ، حتى بلغ منه كل مبلغ ، ونال من الاستمتاع بنصائحه كل بغية ، توفر حظه من جهاد النفس الذي هو مفتاح السعادة ودليل الهداية ، قال تعالى : « وَالَّذِينَ جَاءَهُدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا » (١) وفي الحديث : « جثم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، وهو مجاهدة النفس » . وقال أرباب الطريقة من التصوفة : من لم يكن في بدايته صاحب مجاهدة ، لم يجد لهذه الطريقة سمة .

وقال الشيخ أبو علي الدقاق : من زين ظاهره بالمجاهدة حسن الله باطنه بالمشاهدة .

وكان أحد الأكابر يقول : بُنِيَ هذا الأمر - يعني طريقة الصلاح - على ثلاثة أشياء : ألا تأكل إلا عند الحاجة ، وألا تتكلم إلا عند الضرورة ، ولا تنام إلا غلبة .

وقال ذو النون المصري : إنما دخل الفساد على الخلق من ستة أشياء . ضعف النية بعمل الآخرة ، وصارت أبدانهم رهينة لشهواتهم ، وغلبهم طول الأمل مع قرب الأجل ، وآثروا رضى المخلوقين على رضى الخالق ، واتبعوا أهواءهم ونبذوا سنة نبيهم صلى الله عليه وسلم وراء ظهورهم ، وجعلوا قليل رخص السلف رضى الله عنهم حجة أنفسهم ، ودفنوا كثير مناقبهم .

(١) سورة العنكبوت آية ٦٩ .

وقال أبو العتاهية :

أَشَدُّ الْجِهَادِ جِهَادُ الْهَوَى وَمَا كَرَّمَ النَّفْسَ إِلَّا التَّقَى

١٠ - ومن الطبقة الثانية : تَلَوُهُ فِي درجة الفضل بل الفضيلة والزهد ، وَخَلِيلُهُ فِي طريقة الخير المبلغة للقصد ، القوى الفراسة ، الموكل المعارف ، المتغذى باللطاف الأسرار وأسرار اللطائف ، الدائم الفكرة والسَّهَاد ، أبو بكر بن الشيخ الصالح الخطيب ، أبي اسحاق إبراهيم بن عباد .

لاحت عليه لوائح الاختصاص ، وشم رائحة من نفحات أهل الإخلاص ، وكانت له في الاجتهاد طريقة مأثورة ، ومادة من العلم موفورة ، فألف فيما لاح له من الحقائق مصنفًا لم يظهر بعد وفاته .

حدثني جماعة من أصحابه ، قالوا : سافرنا معه فَأَتَرْنَا بمر كوبه ، وخص كل واحد منا من ذلك بحسب ما افتقرت إليه قواه ، فكنا لا نجد ضعفاً ينتهي بنا إلى العجز ويشرف من تَبِعَهُ على النكال ، إلا رفع عنه المشقة ، وتداركه بنوبة ركوب ، وهو بين يدي مسيرنا على قدميه ، يلاحظ أحوالنا ويهتم بشؤوننا ويتكفل بما يعن من أمورنا ، ومتى حضر وقت الطعام يقدمه ويعزم علينا في الأكل ، ويتشاغل عنا بما يَطْرُق من مهمات السفر ، ويجهد في تملينا من الطعام إلى حد الغاية ، فإن فَضَّلَ شيء أجزأ به ، وإلا بقي على ريقه . وكان يقصد لقوته ما زهد فيه أربابه ونبذوه . فيلتقط طعامه من الممرات ومسيل المياه وأماكن المطروحات ، ولا يدخر ما زاد على سد الجوعة ، ويشتمل ساتراً من ليق العزف ، وليس بينه وبين لحمه حائل ، كان قبله هذا الساتر بعينه للشيخ يوسف بن عمر الأنفاسي المتقدم الذكر فصار إليه بعد وفاته . وكان يقول : من أكل المباح أربعين يوماً نطق بالحكمة .

وسأله بما أدركت ما أدركت من المكاشفة ؟ فقال لي : بالخلوة والصوم وأكل الحلال . فسأله ما معناها ، أو كيف يدرك الولي ذلك الحظ من الاطلاع ، فقال لي : لا يُعرف ذلك إلا بالذَّوق ، يعني لا يعرفه إلا من اتصل به وشاهده . وضرب لي لذلك مثلاً فقال : رأيت لو أن شخصاً خُلِقَ

أعمى لا يبصر شيئاً ، فأردت أن توقع في نفسه معنى لون من الألوان المرئية ، بعد أن يسألك عن شيء منها فيقول لك ما معنى اللون الأحمر مثلاً ؟ فتقول له : اللون الأحمر لون الدم . فيقول لك : وأى لون هو لون الدم ؟ فتقول له لون الشقائق ، فيقول لك ولون الشقائق أى لون هو ؟ فلو انتهيت إلى تعداد كل لون أحمر وجيد ، ما أمكن أن يعترفه ولا يقع في نفسه إلا إن رآه ، وكذلك ذلك الباب ، بأى شيء نمثل لك في شيء خلقت عنه أعمى ؟ إذن يسر الله سبحانه عليك وتبصر ببصيرتك فإنك ستراه عياناً .

وكان له قدم في الإيثار ، فإنه أثر بأكثر ميراثه من والده ، وما زال دأبه السخاء بما كان يكتسب بعد ذلك ، ويصنع الطعام من كسبه للفقراء والضعفاء من ذوى الدين والفضل ، ويتناول تقريبه إليهم بنفسه ، وكان متواضعاً شقيقاً ، فقد بلغنى أن نملة لصقت في ثوبه في موضع جلس فيه ، ولم يعلم بمكانها حتى وصل إلى موضع آخر ، وبين الموضعين مسافة بعيدة ، وكان مسافراً فرآها وعلم أنها من ذلك الموضع الأول ، فرجع حتى ردها إلى موضعها ، وله من أمثال ذلك كثير .

والفراصة مقام جليل ، وحظ من الخير جزيل ، خص الله أهله بالاعتبار فقال وهو أصدق القائلين : «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ» (١) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اتقوا فراصة المؤمنين فإنه ينظر بنور الله عز وجل» .

وقال المشايخ رضوان الله عليهم : الفراصة خاطر يهجم على القلب فينبى ما يضاده ، وهو على حسب قوة الإيمان ، فمن كان إيمانه أقوى كانت فراسته أكثر تمكناً .

وكان الكتانى من المتقدمين يقول : الفراصة مكاشفة اليقين ومعاينة الغيب ، وهى من مقامات الإيمان .

وكان شاه الكرمانى متمكن الفراصة لا تخطيء فراسته ، ويقول : من غرض بصره عن المحارم ، وأمسك نفسه عن الشهوات ، وعم باطنه بدوام المراقبة ، وظاهره باتباع السنة وأكل الحلال لم تخطيء فراسته .

١١ - ومن الطبقة الثانية : رفيقهما في السير على طريقه الأمم ،

الفاضل الخير العلم ، الطالب المشارك ، الصالح المبارك ، ثالثهما في درجة الفضل والصلاح ، أبو زيد عبد الرحمن بن الفقيه الجليل أبي الضياء مصباح .

كان من أقرانها اجتهداً وجداً وورعاً وزهداً ، وكان مبسوط أسرة الوجه لا تلقاه إلا ضاحكاً مستبشراً ، يغلب عليه حسن الظن بالله تعالى ، وكان الشيخ سيدي أبو العباس بن عاشر إذا رآه مال إليه وانشرح عند لقائه ، وكذلك كان الغالب مع كل من يلقاه ويراه لا ينصرف عنه إلا بزائد مسرة وطيب نفس . محباً في أولياء الله تعالى ، طامعاً في سعة رحمة الله ، شاكراً لما لله تعالى عليه من الآلاء والنعماء ، منطلق اليد بالبذل ، مُحْسِناً لأصحابه بالقول والفعل ، وكان من قوله: رجال الدنيا هم رجال الآخرة إذا وفقوا لحسن الظن بالله تعالى والحد في العمل له .

وكان رحمة الله عليه قوى النفس ، معمور القلب بالحق . وكان من خواص أصحاب الشيخ أبي العباس بن عاشر ، توفي سنة أربع وستين وسبعائة ، ودفن وراء الجامع من سلا .

و كان صاحب اللهجة في الشكر ، وشكر الله سبحانه متكفل بالزيد ، قال الله تعالى : « لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ » (١) .

وقال عطاء : « سألت عائشة رضى الله عنها عن أعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبكت وقالت ، وأى شأنه لم يكن عجباً ، إنه أتاني ليلة فدخل معي في فراشي حتى مس جلدي جلده ، ثم قال : يا ابنة أبي بكر ذريني أتعبد إلى ربي ، قلت : إني أريد قربك ، ثم أذنت له فقام إلى قربة ماء فتوضأ ، ثم قام يصلي فبكى حتى سألت دموعه غلى صدره ، ثم ركع فبكى ، ثم سجد فبكى ، ثم رفع رأسه فبكى ، فلم يزل كذلك حتى جاء بلال فأذنه بصلاة الصبح . فقلت يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً . ولم

(١) سورة ابراهيم آية ٧ .

لا أفعل ، وقد أنزل الله عز وجل على : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآياتٍ لأولِي الأَلْبَابِ » (١) - الآيات - .
وقيل حقيقة الشكر : الاعتراف بنعمة المنعم ، وقيل حقيقة الشكر : ألا يُعصى الله بنعمه (٢) .

قال داود النبي عليه السلام : إلهي كيف أشكرك ، وشكري لك نعمة من عندك ، فأوحى الله عز وجل إليه : الآن قد شكرتني .

وفي الخبر : « أول من يدعى إلى الجنة الحامدون لله على كل حال » .

١٢ - ومن الطبقة الثانية : الثائب الصابر ، التابع لسنن الأكابر .

حامل القرآن ، المتصف بأوصاف أهل الإيمان ، الموصوف بالخير المعنوي والحسي ، الشيخ المبارك أبو الحسن على البلنسي ، من أصحاب سيدي أبي العباس بن عاشر ، سلك على سبيله وتأسى بطريقته ، وتمسك بهديه الصالح ، ونزع مترعه ، وكان فقيهاً تقياً ، وصالحاً مباركاً ، مثابراً على قراءة القرآن والعلم ، دائم الصلاة والصوم ، كانت له حالة في الخير مستحسنة ، ووتيرة محمودة ، وتواضع مقبول ، وتسليم يلزمه الرضى ، وكان غير مكترث في أمر الدنيا ، في شغل عن لذاتها بعبادته ، غير ملتفت لها ولا بزهرتها ونضارتها ، حسن التلاوة لكتاب الله عز وجل ، قائماً على الأداء بحسن نسخته ، حريصاً على فهم معناه ، محافظاً على الرفق بما تنطرح عليه أشعة بصره ، فكان له زيناً . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما كان الرفق في شيء إلا زانه » . فكفى بذلك فضلاً وكمالاً . توفي سنة أربع وستين وسبعمائة ، ودفن وراء الجامع من سلا رحمة الله عليه .

١٣ - ومن الطبقة الثانية : مظهر الألفاظ الخفية ، وصاحب

الحالات السنية ، الكثير الصوم والصلاة ، الشيخ المبارك «فاصكاة» .
أصله من قرية بظاهر سلا يقال لها «أقرميم» . كان من أصحاب سيدي

(١) سورة آل عمران آية ١٩٠ .

(٢) في ك : ألا يعصى المنعم بنعمه .

أبي العباس بن عاشر ، وكان عبداً صالحاً ملطوفاً به في جميع أحواله ، فكانت جميع حالاته عجباً ، وذلك أنه كان مستضعفاً في بدنه رقيق النفس ، كثير الخشوع مستتر الحال ، وكانت له مع ذلك مقامات سنة ، وكرامات كثيرة عالية .

سمعت عنه أنه زار قبر الشيخ أبي يعزى بتاغية من موضعه بظاهر سلا ، فشئى ورجع في وقت واحد ، فسألته عن ذلك ، وأقسمت عليه أن يخبرني بذلك السر ، فقال لي يا أخى : ما نعرف كيف جرى ، إلا أنى نويت زيارة الشيخ فخرجت من خلوتي برسم ذلك ، فأصابتني في الحين شبه سنة من نوم ، فما أفقت إلا على قبر الشيخ ، فحمدت الله تعالى وقضيت أربى من التبرك بذلك القبر المبارك ، ثم نويت الرجوع فاتفق لي مثل الاتفاق الأول .

وكانت الوحوش تأنس به في خلوته ، وبات ليلة في سلا ، وصلى معنا العتمة ، ثم إن بعض الأصحاب كانوا مسافرين ورَدُّوا على موضعه بظاهر البلد وهم يظنون أنه ثم ، فلما قربوا من الموضع تعرض لهم الأسد ، قالوا : فإذا بالشيخ فاصكاة يحول بيننا وبينه ، وأضافنا تلك الليلة ، فكانت هذه الكرامة لهذا الشيخ من أعجب العجائب وأغربها .

توفي رحمه الله عليه سنة أربع وستين وسبعائة ، ولم تكن له حالة تغلب عليه غير رقة القلب والخشوع ، وأنعم بهاتين الحاليتين ، وما أعلاهما وأجل قدرهما ، نفعنا الله به آمين .

١٤ - ومن الطبقة الثانية : الواله الحزين ، مواصل البكاء والأين ، صاحب الأسلوب الغريب ، والحال العجيب ، والصالح الأتزه ، الشيخ أبو محمد حسين الأبله .

أصله من ظاهر سلا من موضع يقال له «أشمير» ، لقي سيدى أبا العباس ابن عاشر مرات عديدة ، وكان الشيخ يسلم له في حاله ، فإنه كانت له أحوال غريبة ، وكرامات كثيرة ، ونزعات عجيبة شاذة الطريقة ، نادرة النوع ، وكان نحواً ممن يسميه المتصوفة عبد حال مغلوب عليه ، حتى لا يشك

من رآه أن به مسأً من الحزن أو خالط عقله فساد ، وكان استولى عليه من تعظيم جلال الله سبحانه أمر عظيم ، صرّفه عن سواه فاستخلصه لنجواه ، فكان في أكثر الأوقات لا يلقي إلا ذاكراً لله تعالى رافعاً بذلك صوته ، وأكثر ما كان يجري على لسانه قوله لا ترى إلا الله ، ما ثم إلا مولاه ، فإذا أنكر عليه أحد ما يبدو عليه من الصياح والزعقات والذكر بجهارة الصوت ، يقول يا أخى : ما هو باختياري ، وإنما أنا عبد مأمور ، إن أمرت بشيء فعلته . وكان لا يقرله قرار ، وإذا سمع شيئاً من الذكر زعق حتى يظن أنه مات ، ثم يفيق ، وكان مشهود البركات مشهور الكرامات .

وكان له حظ من استجابة الدعوة والاطلاع على شيء من الخفيات ، إذا لمس يده مريضاً شفي ، وإذا قرأ في أذن مصروع أفاق ، وإذا دعا على أحد هلك ، سرق له رجل يوماً قرعة من قرعه كان يزرعه بيده ، فقبلت له فدعا عليه ، فأصابه وجع فقضى عليه فمات ، فقبل له كيف تقتل نفساً بسرقة قرعة ؟ فقال : قتله الله على هتك حرمة عبد من عبيده ، ماله جهة إلا جهته . وبات ليلة معنا في سلا ، في دار بعض الإخوان ، فما كان إلا أن مر من الليل جزء حتى قام بصحن الدار وجعل يصيح بأعلى صوته ، منتهراً لشيء لا نعلمه ، وأشار لجهة داره (بأسمير) . فسألناه عن ذلك فقال : إن بعض أصحابنا وصلوا الآن لموضعى بأسمير ، فتعرض لهم الأسد فصحت به . فلما أن كان من الغد فصحننا عن الأمر فوجدناه كما قال ، فسبحان من إذا أطاعه عبده طوع له كل شيء ، لا إله إلا هو الحكيم العليم .

توجه للبلاد المشرقية سنة خمس وستين وسبعائة ، ولم يسمع له بعد ذلك خبر ، ولا أعلم أهو حي أو قبضه الله تعالى إليه ، وكان يغلب عليه الأسف (١) والحزن .

قال الشيخ أبو القاسم القشيري : الحزن يقبض القلب عن التفرق في أودية الغفلة .

(١) لعله الأسى .

وقال أبو علي الدقاق : صاحب الحزن يقطع من طريق الله تعالى في شهر ، ما لا يقطعه من فقد حزنه في سنتين .

وفي الخبر : «أن الله تعالى يحب كل قلب حزين» .

وفي التوراة : إذا أحب الله عبداً نصب في قلبه نائحة ، وإذا أبغض الله عبداً جعل في قلبه مزماراً .

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان مواسل الأحران دائم الفكرة .

وقيل : القلب إذا لم يكن فيه حزن خرب .

وقال سفيان بن عيينة : لو أن محزوناً بكى في أمة ، لرحم الله تبارك وتعالى تلك الأمة ببيكائه .

١٥ - ومن الطبقة الثانية : مستنشق مَهَاب الرحمة ، والمكب على الأعمال التي هي مظان الوصول إلى الجنة ، الشاب الصالح المواسي ، أبو الربيع سليمان المكناسي .

كان رحمة الله عليه من أصحاب الشيم الزكية ، والمناقب المرضية ، أقام مدة يقضى في كل يوم وليلة صلاة شهر ، أشل الرجل الواحدة ، وكان متسع الأخلاق ، منشرح الصدر ، لين الجانب ، حسن الطريقة ، جميل العشرة ، صادق اللهجة ، حقاً كله ، لا يفتر عن عمل من الخير ، مصروفاً عما لا يعنيه ، متواضعاً خاشعاً ، خيراً مجتهداً ، زاهداً ناسكاً عابداً ، كان قبل وفاته بثلاثة أيام ونحوها ، صحيحاً لا يجد ألماً ، فانقلب ما كان يظهر على محله من البسط قبضاً ، ومن الانشراح لإخوانه انكماشاً منهم ، وأكب على قراءة القرآن من المصحف ، والتزم صون النطق بما دون القرآن والذكر ، فعجبنا من حالته تلك ، على خلاف ما نعهده منه من الأنس به ، فأتى إليه بعض الأصحاب يطلب بسطه ومراحه ، فأنهره وأغلظ إليه في القول ، وقال له يا أخى : إن الحق قد أقبل ، وإن الباطل قد ذهب ، وما أرى أجلى إلا قرب ، فكن في شأنك ودعني في شأني ، فوالله ما كان بينهما إلا نحو من

ثلاثة أيام حتى قبضه الله إليه ، سنة أربع وستين وسبعائة ، ودفن مع أصحابه وراء الجامع من سلا رحمة الله عليه .

وكان كثير الخشوع يرجو بركته - أى الخشوع - . قال تعالى : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ » (١) . وقال عز وجل : « وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ، وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا » (٢) . قيل معناه : متواضعين خاشعين : والخشوع انكسار القلب من هيبة الرب .

وقال محمد بن على الترمذى : الخاشع من خمدت نيران شهوته ، وسكن دخان صدره ، وأشرق نور التعظيم فى قلبه ، فانت شهوته ، وحى قلبه فخشعت جوارحه .

١٦ - ومن الطبقة الثانية : الشاب التقى ، البر الزكى ، واحد النجباء ، الظاهرة عليهم نخيلة الصلحاء ، الفقيه الصالح الأبر ، أبو الربيع سليمان بن يوسف بن عمر .

نخبة أهل عصره ، وواحد أهل زمانه ، الناسك الورع المجتهد ، الجامع إلى فضل الطبع وكرم الأخلاق والخلال مآثور الأفعال وسنى الأعمال . والمنتهى من السبق فى حلبة المتجارين فى ميدان الفرقان إلى غاية تفنن الكمال ، وارث الخير ومزكبه بالمحامد البارعة التفصيل والإجمال ، معمر الباطن بالحق معمر الوقت بالخير ، كامل المروءة ، مكتره الفساد ، ناصح لعامة المسلمين ، مهتم بشأن أهل الدين ، سالك فى ذلك سبيل العارفين ، لا تأخذه فى الحق لومة لائم ، كثير المواساة ، شديد الحرص على عمل الطاعات ، تشأ نشأة صالحة ، شاب لم تعرف له صبوة ، يقظان حازم متفقد لإخوانه ، متعطف على جيرانه ، وطىء الأخلاق ، سهل الجانب ، حميد السيرة ، جار فى العبادة على وتيرة لا تعرف الميل وعادة كريمة ، آخذ بالتوسط فى جميع

(١) سورة المؤمنین آية ١ ، ٢ .

(٢) سورة الفرقان آية ٦٣ .

أموره ، على الهمة في طاعة ربه ، تهش له القلوب ، ولا تكاد تنصرف عنه الأحداق ، معظم في الصدور ، محبوب عند الخاصة والجمهور ، وكان والده رحمة الله عليه يتعرف فيه مخايل النجاة ، وكان يقول : إنه سيكون لابني سليمان شأن ، وذلك أنه كان في مدة رضاعه متى كانت أمه جنباً لا يقبل ثديها حتى تتطهر .

وحالته رضى الله عنه عجب ، تفقّهت عليه في شيء من رسالة ابن أبي زيد القيرواني ، وشمعت منه رعاية المحاسبي ، وبعضاً من كتب التصوف ، ولم يزل يظهر عليه في حلقات العلم من عاو الإدراك ومحمود الألفاظ ، والتبرى من حظ نفسه وترك المرآء والجدال ، وجودة النظر ، وإصابة الفهم ، وقصد المعاني ، وقرب المآخذ ، ما انقطع به عن القرين وبذ أصحابه ، وله من لطف العبارة وبيان القول وإظهار الحجة أوفر نصيب ، فلم يزل مع إخوانه يرحمهم ويحفظ قلوبهم .

ومن حالته الغريبة وأخلاقه الكريمة ، تفقد أحوال من غاب ومن حضر من إخوانه ، وتكفلهم واستسلاف ما يعينهم به إن لم يكن على ملكه ، فيدفع عنهم مشاق الاحتياج ، يفعل ذلك تبرعاً من غير سؤال ، سحبة وكرم جبلة .

فأما ما أظهره الله عز وجل عليه من كرامته التي تبرهن على كمال فضله وعظيم مزيته عند ربه ، وتقيم الدليل على صدق حاله : ما حدثني به أبو زيد عبد الرحمن الطراز ، وهو خاص به وقائم على خدمته ، قال : كنت جالساً يوماً بخانوق فر بنى سيدى سليمان ، واستدعاني فترلت إليه مبادراً ، فتقدم وصرت خلفه ولا أعلم أين يريد ، إلى أن خرجنا على باب الحيسة من أبواب فاس ، وانتهينا إلى موضع فوق الطريق ، فجلست وجلست بين يديه مدة ، فر بنا رجل وبين يديه دابة عليها حمل إدام ، قال : فلما رأى ذلك الرجل نهض ونهضت معه ، فأقبل على الرجل يحادثه ويؤنسه إلى أن دخلنا على الباب ، فبادر البوابون إلى الدابة ، فلما رأوه تأخروا عنها ، وتقدم هو ، وتأخرت

أنا ، وتأخرت الدابة ، فقام أحد البوابين وقال : لا بد أن أرد هذه الدابة ،
وتناول رجوعها وضربها بيده فقلت : ألا تستحي وتعلم أنها جازت في حرمة
الشيخ سليمان ، فلج ساعة ثم خلى سبيلها ، فأبطأت عنه ثم لحقته ، فسألني عن
إبطائي ، فقصصت عليه القصة ، فقال لي : سبحان الله وفعل ذلك ؟
فقلت : نعم . فقال : إنما أضرب نفسه ، فانصرفنا فوالله ما كان بيننا إلا أن
أقر بي المجلس في حانوتي ، حتى أتاني البواب مستغيثاً بي ، معلق اليد ،
فقلت له : ما الخبر ، فقال لي : يا سيدي لما انصرفتم أصابني وجمع مبرح ،
فددت يدي آخذ درهماً أبعث به لشراء دواء أدفع به ما أصابني من الألم ،
فوجدت عوضاً من الدراهم عقرباً فلسعتني ، فها أنا مشرف على الهلاك إن
لم يتداركني الله برضى الشيخ سيدي سليمان ، وبركته دعائه الصالح . قال :
فانصرفت معه إليه وأخبرته بالقصة ، واستعطفته ورغبت منه في الدعاء له ،
وقلت له : يا سيدي إنه يتوب إلى الله تعالى ، فاستدعاني بحناء فرقاها وتفل
عليها ، وأمرنا بوضعها على موضع الألم . فوالله ما تمت تلك الليلة حتى
سكن وجعه ، وذهب بأسه ، والحمد لله .

وحدث الشاب أبو الوليد إسماعيل بن يوسف بن الأحمر ، قال :
ما رأيت أعجب من بركة سيدي أبي الربيع سليمان ، وذلك أن أهلي من
عاداتهم أن يصيبهم في رأسهم طارق ووجع مبرح ، أعيا الأطباء وأعجز
الأدوية ، فأزمن ذلك وتكرر عليها ، فأصابها مرة فأشرفت على الهلاك ،
ففزعزت لبركته وقصصت عليه القصة ، فكتب لي تيممة ، فوالله ما وضعها
على رأسها إلا وسكن الوجع لحينه ، وذهب والحمد لله .

وحدث بعض جيرانه أنه قال : أصابني ليلة رمد في عيني فأوجعني
وأسهرني ليلتي تلك ومنعني نومي ، فلما أصبحت سرت إلى التبرك بسيدي
أبي الربيع مسرعاً ، فشكوت له ما نالني من ألم الرمد ، فوضع يده
المباركة على عيني وتعوذ عليها ، فشفاني الله تعالى ودفع عني شر ما كنت
أجد والحمد لله على ذلك .

لم يفارق التسليم في حال من أحواله من لدن نشأ على ما نشأ عليه من
الطهارة والعفاف .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «سبعة يظلهم الله يوم القيامة بظل عرشه ، يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل معلق قلبه بالمسجد إذا خرج حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا في الله واجتمعا على ذلك وتفرقا عليه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ، ورجل دعت امرأته ذات حسن وجمال فقال إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شئاله ما أنفقت بمينه » .

وقال المشايخ رضى الله عنهم : أصل العبودية ترك الاختيار ، وشاهدها ظهور الذل والافتقار .

ومن مكارم الأخلاق أن يكون العبد أبداً ساعياً في أمر غيره ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا يزال الله عز وجل في حاجة العبد ما دام العبد في حاجة أخيه المسلم» .

وقال أبو علي الدقاق : كمال هذه الصفات لا يكون إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن كل أحد في القيامة يقول نفسى نفسى ، وهو صلى الله عليه وسلم يقول أمتى أمتى .

وقال الشيخ الاستراباذى : إنما سمي أصحاب الكهف فتية ، لأنهم آمنوا ببرهم بلا واسطة ، قال تعالى : «لَآئِهِمْ فَتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى» . (١)

وقال الحنيد : الفتوة كف الأذى وبذل الندى .

١٧ - ومن الطبقة الثانية : الكثيف جلباب الحياء ، المكب على ما يعد لدار البقاء ، صاحب الصدر السليم ، والنظر المستقيم ، المعطى للخير رَسُل الانقياد ، أبو عبد الله محمد بن عباد .

(١) سورة الكهف آية ١٣ ..

من أشد المريدين مروءة ، وأكثرهم حشمة ، وأكثرهم للخلوة ، وأدأبهم على مطالعة كتب العلماء ، ومصنفات الفضلاء ، وله مآثور صحيحة مع الشيخ أبي العباس بن عاشر ، ومرافقته مع الزهري المتقدم الذكر ، وأخيه أبي يحيى بن عباد . وكان الشيخ رحمه الله يمهّد له كرامة ، ويلحظه بعين عناية ، ويقرر نجاحه عند الخاص والعام ، ويشهد له أصحابه بيمين النقية وسلامة الحبيب وكرم الفطرة . مشغول بما يعنيه ، ذو حظ من العلم ، منور البصيرة حسن الاهتداء ، وقور السميت ، على الإدراك ، ثاقب الذهن ، خير كله ، ظاهره وباطنه في الخير سواء ، وأحواله في الخيرات تزيد ، وباعه في الفضل يمتد ، له همة متشوفة إلى الاطلاع على غرائب العلوم ، وأكثر تعبده الاشتغال بالقراءة ، فأوقاته مستغرقة في مطالعة الكتب والتمتع بفنون العلم ، مؤثر للصمت ، وقد قيل : إن الصمت مقام من مقامات الأولياء ، وصفة جليلة من صفات الحكماء ، وبه يرتفع الأذى .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذى جاره ، ومن كان كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقلل خيراً أو ليصمت» .

وعن عتبة بن عامر قال : «قلت : يا رسول الله . ما النجاة ؟ قال : احفظ عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك» .

وقال بعضهم : الصمت لسان الحكمة .

وفي الحديث : «الصمت حكم وقليل فاعله» .

وفي الحديث : «من صمت نجا» .

وقال حكيم : تعلم الصمت كما تعلم الكلام . فإن الكلام يهديك ، والصمت يقيك .

وقيل : من عد كلامه من عمله ، قل كلامه إلا فيما يعنيه .

وقال ابن مسعود : ما شيء بطول السجن أحق من لسان .

١٨ - ومن الطبقة الثانية : الخير الفاضل العالم العامل الزاهد في الدنيا وزهرتها ، الراغب في الآخرة ونعمتها ، الحاج الأبر ، المبارك الرجراجي أبو عمر .
 نزل فاساً وهو بها حتى الآن ، من أقران محمد بن عباد علما وورعاً وفضلاً ، وهو من الفقهاء الصالحين والعلماء العاملين ، حج على قدم التجريد ولقى الأكابر في وجهته تلك ، ورأى العلماء واقتبس من أنوارهم ، واستفاد من فوائدهم ، وعرضت عليه أمور من الدنيا كثيرة ، فتورع عنها وأبى أن يقبلها ، واقتنع بالكفاف ، وآثر الخمول ، واختار الفقر ، وتدرع بالسلامة ، وسلك سبيل العافية .

وله حالات مشهورة ، وأفعال مرضية ، وورع محمود .

سمعت عنه من ورعه وتحفظه وتوقيه : أنه اكرى في وجهته للمشرق حملاً يحمل عليه ما يضطر إليه وقت دخوله البرية ، فبعد أن حمل عليه ما احتاج بكرة ، نزع سرواله وغسله وجعله ينشف على كتفه ، فقيل له يا سيدي : ألا تجعله على الحمل ، فقال لم أشرطه في الكراء . ولم تكن له حالة إلا الأخذ في قراءة العلم ، نفعه الله ونفع به .

١٩ - ومن الطبقة الثانية : الفقيه الصالح ، الخير الناصح ، الحسن السميت والهدى ، الفاضل البر التقي ، أبو زيد عبد الرحمن البسكري .

فقيه مدرس وعالم عامل زكى عاقل ، نزل فاساً وهو بها حتى الآن ومن أتراب الرجراجي وأحد فضلاء الوقت ومن يشار إليه بالصلاح والفضل ، صابر محتسب مقتصد في أمره ، راض بخالة العيش ، حذر في كسبه ، حسن الطريقة ، منور السريرة ، دائم الاجتهاد ، هادئ الروعة ، محمود النزعة ، يغلب عليه تقوى الله عز وجل ، والتقوى هو الحبل الأقوى ، وأصل الخير كله ، وينبوع البركات ، وباب الصلاح ، ومفتاح علم النجاح . قال الله تعالى : «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ» (١) . وقال تعالى : «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ» (٢) .

(١) سورة البقرة آية ٢٨٢ .

(٢) سورة الطلاق آية ٢ ، ٣ .

٢٠ - ومن الطبقة الثانية : المنقطع للعبادة ، الظاهر الفضل والسيادة

المشتغل بما يعنيه من أمره ، المجتهد في تطهير نفسه وقلبه ، نجيع الورعين من جملة الأخيار ، الشيخ أبو محمد عبد الله بن جرار .

أحد فضلاء الوقت الموسومين بالفضل والصلاح ، وهو من أصحاب الشيخ الصالح سيدى أبي العباس بن عاشر رضى الله عنه ، ومن اقتفى سيرته وسلك طريقته في ورعه وتقشفه جذوك النعل بالنعل ، وهو إلى الآن منقطع في الفياق والفقار ، مُختل في نفسه وأهله ، مقتصر على صلاح شأنه من أمر دنياه ودينه ، رضى السيرة ، حسن السريرة ، مُحصل لحظ من العلم ، تارك للفضول من العيش ، مواظب على الخيرات ، عامل للصالحات ، انتهى إلى رتبة من النسك عظيمة ، وترقى إلى درجة من العبادة جليلة ، فلاح له من أنوار الطاعة بوارق ، وأشرق عليه من نورها شارق ، وهو إلى اليوم على قدم من الصلاح عال .

حدث عنه في الوقت جماعة من فضلاء الفاسيين بما هو عليه من الاجتهاد الذى ملأ أبصارهم وبصائرهم ، تعظيما له فوق ما كان يظهر منه ، وأنه صار في حد ظهور الكرامة على محله .

حدثني بعضهم قال : لما توجهت أنا ورفيق لى خاصين دون الجماعة لزيارة الشيخ أبى محمد ، ضللنا عن الطريق ونالتنا من ذلك مشقة ، ثم اهتدينا فبلغنا موضعه ، فبنفس ما وردنا عليه صادف ورود جماعة من الفاسيين فى ساعة واحدة ، وسلمنا عليه أجمعين ، فقالوا له يا سيدى : لقد ضللنا عن الطريق ونالنا من ذلك مشقة عظيمة ، فقال لهم ونظر إلينا متبسما : هؤلاء شقوا أكثر منكم ، ولم نكن نحن نخبره بما جرى لنا ، فعلمنا أنها منه مكاشفة وكرامة . ثم قال : وعسى أن يكون الأجر قدر المشقة بفضل الله تعالى وجزيل إحسانه .

٢١ - ومن الطبقة الثانية : الصالح الجليل القدر ، المواظب على

الصلاة والصيام والذكر ، الكثير الحشية والإشفاق ، الشيخ العابد أبو إبراهيم

إسحاق .

من سكان فاس ، من جلة عباد الوقت وأخيار فضلائه ، ومن يرغب في بركة دعائه ويرتجى قبوله ، فقيه جليل ، وناسك مجتهد ، يغلب عليه الانقباض والخوف من جلال الله تعالى . وهو إمام الفضيلة في عدول فاس القرويين في مسجد الصديني ، لقيته وتبركت به والتمست منه الدعاء ، ذو شمة مباركة يلوح عليه الخير والصلاح ، وطريقته حسنة تنفوس فيها مخايل النجاح ، وحسبك بهاتين الخلتين مقاماً ، وكرامة ورفعة وفضيلة ، فن صلح للخير تمت مروءته ، وكملت فضيلته ، ووجب على الخاص والعام تعظيمه وتكريمه .

٢٢ - ومن الطبقة الثانية : الشيخ الصابر المحتسب ، الصوام القوام على مر السنين والأعوام ، الكثير البركات والفضائل ، أبو البقاء يعيش المواصل .

مصمودى الأصل ، زكى الطريقة ، قوى المجاهدة ، كثير السياحة ، عجيب السيرة ، عطش نفسه ثمانى عشرة سنة لم يشرب فيها ماء ، بل كان إذا أفرط عليه الأمر يحسو حشيش الشعير يصنع له إذا حل بمعروف (١) . وهو معروف عظيم ملحوظ بعين الجلالة . لقي المشايخ الكبار ، ولقي الشيخ سيدى أبا العباس بن عاشر ، وما زال على ملازمة طريق الخير والمثابرة على سبيل البر ، مشغلاً بزكاة نفسه ، مصروفاً لمعالجة قلبه ، حافظاً لكتاب الله عز وجل ، وكانت له بداية اجتهادية ، وحالة مستحسنة ، والحالة الغالبة عليه معالجة النفس والهوى ، والصبر على مقاساة المشقة والبلوى وترك الشهوات ، واقتفاء سبيل الصالحين ومنهاج العابدين . قال مالك بن دينار رضى الله عنه : من غلب شهوة الدنيا فذلك الذى يفر الشيطان من ظله .

وقال بعض المشايخ : إن أهل النار غلبت شهواتهم على حميتهم ، فلذلك افتضحوا وحل بهم البلاء .

(١) المعروف فى اصطلاح الفاربية : الوليمة ..

٢٣ - ومن الطبقة الثانية : الشيخ الخائف الباكي ، الصابر في ذات الله سبحانه فليس يرى بالشاكي ، الحسن القول والفعال ، أبو الربيع سليمان صاحب الحال .

أصله من بني يازغة ، نزل فاساً وهو بها إلى الآن ، وسكنه منها بجهة يقال لها عيون الكرازين ، فجرت عليه نسبته إلى هذا الموضع ، أحد فضلاء الوقت المعروفين بالصلاح ، الذين تلتبس بركتهم .

صحب سيدي أبا عبد الله الخلفاوي ، ولقي سيدي أبا العباس بن عاشر ، ومن في زمانه في طبقة من الأكابر في سلا ، ولقي جميع أصحابه هنالك ، وكان شيخه الذي أخذ عنه الطريقة : الشيخ الكبير الشان ، أبا محمد عبد الله التكروري ، وكان من مشاهير المتبركين بهم من أقران سيدي عبد الله اليابوري بسلا ، وكان موضع سكنه بجامع الصابرين من فاس ، وكان له أحوال سنية ، ولسان في علم التصوف بليغ ، حسن العبارة لطيف الإشارة . دقيق النظر ، على قدم من التجريد ، وكان له مجلس للعلم والتذكير ، يحضره أكابر الوقت مثل الفقيه أبي إسحاق الزناسني ، والفقيه أبي الضياء مصباح ، ونظائرهم من أهل الفضل والفقه .

وسمعت أن بعضهم كان يقول : كنا إذا أقبلنا على الشيخ ارتعدت فرائصنا من جلالته ، فعن هذا الشيخ المبارك كان أخذه ، وبه كان انتفاعه وتبركه ، وكان تلميذه الخاص به ، فحصل على حظ جزيل من فوائده وأسراره ، وكان الشيخ يسميه فيما سمعت : النجيب ، ويخصه بالعلوم الخفية والأسرار الدينية ، فنشأ على ذلك خير نشأة ، وتربى في حجرة خير تربية ، وهو على ذلك إلى الآن في زيادة اجتهاد في الخيرات ، وملازمة الطرق الصالحات ، والغالب عليه رقة النفس والخشوع ، وهو صاحب حال ، والحال عند القوم عبارة عن معنى يرد على القلب ، فيشرق فيه نوره كوميض البرق ، وهو مما لا يدوم زمانين ، فإذا تكرر الحال وثبت كان مقاماً ، ولذلك قالوا رضوان الله عليهم : الأحوال مواهب والمقامات مكاسب ،

والأحوال تأتي من عين الجود ، والمقامات تحصل ببذل الجهود ، وصاحب المقام متمكن في مقاله ، وصاحب الحال مرقى عن أحواله .

٢٤ - ومن الطبقة الثانية : الشيخ الناسك الصالح المبارك ، العاكف

على العبادة ، الظاهر البركة والسيادة ، أبو عبد الله السيد محمد العربي .

نزل فاساً وانقطع للعبادة منها بجامع بموضع يقال له غدير الحوزة ، وهو به حتى الآن أحد فضلاء الوقت وأشياخه الموسومين بالخير والصلاح ، والاجتهاد في العبادة ، وسلوك سبيل المؤمنين ، لقيته غير مرة ، وتبركت به واتمست دعاءه الصالح ، وله طريقة مبنية على الحلوة والذكر وتلاوة كتاب الله تعالى عز وجل ، وله بركة معروفة في بقية وضوئه يستشفي به المرضى ، وينال بركته المصروعون من مس الجن ، وله في ذلك قوة يقين بحسن نيته نفعه الله ونفع به ، ولم تكن له حالة تغلب عليه فيما أعلم غير الانقطاع لباب الله تعالى ، واللجأ إلى الله عز وجل ، وكفى بذلك شرفاً وفضيلة .

٢٥ - ومن الطبقة الثانية : الشيخ المتخلق المتواضع ، الحسن الهدى

الخائف الخاشع ، الناسك المبارك أبو الحسن اللجائي .

تلميذ الشيخ أبي عبد الله الحلفاوى ، أحد أعلام مشاهير الوقت ، والظاهرين بطريقة الخير ، المنتصبين لأفعال البر ، لقي عدة من الأكابر وفضلاء المشايخ ، مثل الشيخ الزيات ، شيخ شيوخه الحلفاوى ، ونظرائه ومن كان في وقته ، فاقتبس من أنوارهم ، واستفاد من فوائدهم ، وتأدب من آدابهم ، وانتفع بخدمتهم وموالاتهم ، وظهر عليه ما نال من بركتهم ، فما زال بعد مثابراً على الخير ملازماً لطريقة البر ، مشغلاً بزكاة نفسه وطهارة قلبه ، حافظاً لكتاب الله عز وجل .

وكانت له بداية اجتهادية ، وحالة مرضية ، فن ذلك أنه كان يجلس بعد صلاة الصبح ذاكراً لله تعالى متوجهاً في المسجد ، فلا يزال على حالته تلك إلى وقت الزوال فإذا رام القيام يؤثر الحصر في لباسه^(١) ، وكان

(١) في ك : أسافله .

مع ذلك كثير الخدمة لشيخه ، كثير المراقبة لأحواله ، دائم الملازمة له ، وسلك نوعاً من طريقته في القيام على مصالح المسلمين ، والنظر في أحوال المساكين ، والوساطة في الصدقات عليهم ، والمبالاة بأمرهم .

وله في حسن المحاولة في إصلاح ذات البين بين الناس قدم ، وفي زوال الشحناء والتباغض بينهم ، والذي يؤثر من طريق العبادات : ذكر الله تعالى عز وجل مفتاح الخير وأول مقام الثابنين ، فإنه ضد الغفلة ، وهو على ثلاثة مراتب : ذكر باللسان وهو أولها ، وذكر بالقلب ومعناه يقظة القلب وحضوره مع الحق ، وهو أوسطها ، وذكر بالحوارج والقلب معاً بالوقوف عند حد الأمر والنهي وهو أعلاها وأرفعها . والمؤمن مطالب بالذكر على كل حال ، قال الله عز وجل : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا » (١) .

وقال تعالى : « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ » (٢) - الآية -

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أَلَا أُبَيِّنُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ ، وَأَرْكَاهَا عِنْدَ مُلِكِكُمْ ، وَأَرْفَعُهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرَ لَّكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرَقِ ، وَأَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ أَوْ يُضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ . قَالُوا : وَمَاذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : ذَكَرَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَى رَجُلٍ يَقُولُ اللَّهُ اللَّهُ » .

قال الأستاذ أبو القاسم القشيري : الذكر ركن قوى في طريق الآخرة ، بل هو العمدة في هذه الطريق ، ولا يصل أحد إلى الله تعالى إلا بدوام الذكر . قال : وكان شيخنا أبو علي الدقاق رحمه الله يقول : الذكر منشور الولاية .

(١) سورة الاحزاب آية ٤١ ..

(٢) سورة آل عمران آية ١٩٠ .

وقيل لأبي عثمان الصوفى : إنا نذكر الله تعالى فلا نجد في قلوبنا حلاوة ،
فقال : احمدا الله تعالى الذى زين جارحة من جوارحكم بطاعته .

وقيل : من يحب أن يعلم منزلته عند الله فليُنظر كيف منزلة الله تعالى
عنده ، فإن الله تعالى ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه . قال تعالى :
« فاذكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ » (١) .

٢٦ - ومن الطبقة الثانية : العالم العامل ، ذو العقل الكامل ،
والطبع الفاضل ، الثائب التقي ، والفقيه المفتي ، نخبه من له من الأقران
والأتراب ، الحاج المبرور أبو العباس أحمد بن محمد المدعو بالقباب .

من أهل فاس ، ومن يعرف بالفضل والدين ، ويعد في طريقه العلماء
العاملين ، تاب فحسنت توبته واستبانت فضيلته . ورحل إلى المشرق فلقى
هناك الفضلاء من أهل العلم والصلاح ، واقتبس من أنوارهم ، وانتفع
ببركة ملاقاتهم ، واجتلب من مصنفاتهم ، وسيرته الآن سيرة أهل الفضل
من أكابر من تقدمه على الدؤوب على قراءة العلم وإقراءه ، واكتساب الطيب
والتقشف ، وترك متاع الدنيا ، والتواضع للخاص والعام ، وخفض جناح
الرحمة للضعفاء والمساكين . وهو ممن لقي سيدى أبا العباس بن عاشر رحمة الله
عليه ، وتبرك به وبأمثاله من الفضلاء ، وما زال على هذه الحالة إلى الآن من
زيارة الصالحين ، ورؤية الفضلاء من أهل الدين ، والتبرك بملاقاتهم ،
ومشاهدة أحوالهم ، والتأدب بأدابهم .

(كملت الطبقة الثانية بعون الله تعالى ، يتلوها الطبقة الثالثة بحول الله وقوته)

٢٧ - فمنهم : الشيخ المبارك أبو عبد الله محمد بن يحيى ، المعلم لكتاب
الله تعالى .

من أصحاب سيدى أبي العباس بن عاشر ، ومن له حظ وافر من الخير ،
سلاوى الدار ، وبها توفى سنة أربع وستين وسبعائة رحمة الله عليه ، وكان

على طريقة الشيخ رضى الله عنه . فى ورعه وتحفظه ، وكان فى ذلك زكى النفس ، حسن الخلق ، جميل العشرة ، كثير التحمل للأذى ، صابراً محتسباً ، وكان ممن يوصف بالقناعة ، والقناعة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «القناعة كنز لا ينفد» ، وقال الله عز وجل : «مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً» (١) ، قال كثير من المفسرين : الحياة الطيبة فى الدنيا القناعة .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كن ورعاً تكن أعبد الناس ، وكن قنوعاً تكن أشكر الناس ، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً ، وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً ، وأقلل الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب» .

وقيل : الفقراء أموات إلا من أحياه الله بعر القناعة .

وقال محمد بن على الترمذى : القناعة رضى النفس بما قسم لها من الرزق .

وقيل فى قول الله عز وجل : «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبُ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا» (٢) : بالسخاء والإيثار .
وفى معناه قيل :

أَفَادَتْنِي الْقَنَاعَةُ أَيَّ مَالٍ وَأَيَّ غِنَىٰ أَعَزُّ مِنَ الْقَنَاعَةِ
فَصَبَرَهَا لِنَفْسِكَ رَأْسَ مَالٍ وَصَبِرَ بَعْدَهَا التَّقْوَىٰ بِضَاعَةِ

٢٨ - ومن الطبقة الثالثة : الصالح المجد العابد المجتهد ، صاحب

التقشف والتقليل ، الشيخ أبو على عمر السلاوى الدار النفرى القبيل ،

من أصحاب سيدى أبى العباس بن عاشر ، رضى الله عنهما ، ولقى قبله أكابر السلاويين وخدمهم وأخذ عنهم ، كان رحمه الله من العباد المجتهدين ومن عباد الله الصالحين ، وكان مؤثراً لطريقة الشيخ أبى العباس بن عاشر فى

(١) سورة النحل آية ٩٧ .

(٢) سورة الاحزاب آية ٣٣ .

تقشفه وتقلله وورعه ، واحتياطه في جميع أموره وخصوصاً في كسبه ، حتى إن الشيخ رحمه الله كان يحرق أطيب أرضه من شدة احتياطه في كسبه ، وكان ممن لاح له بارق الخير ، وذلك أنه كان يعمل في بستان له يكتسب منه بموضع يقال له « آتمير » من ظاهر سلا ، وكان ذلك الموضع منه خصوصاً مظنه للأسود ومسلکہا الذي تمر عليه ، وربما كانت تمر به وهو على شغله في غداة أو عشي ، فلا تضره ولا تؤذيه ، فإذا قيل له في ذلك يقول : إنها لن تضرني إن شاء الله ، فإني مسالم لها في طاعة من طاعة الله عز وجل ، وما ظني بربي إلا خير ، وكذلك كان ، لم تضره قط ، ولا آذته ، حتى قبضه الله عز وجل ، سنة أربع وستين وسبعائة رحمه الله .

وكان فيه إثارة على إخوانه وتحن على الضعفاء والمساكين ، وما كان يدخر من قوته إلا قدر كفاية عائلته ويتصدق بالباقي ، وربما أثر بقوته وإن كان خاصاً به ، وربما كان يفعل ذلك ويكون صائماً ويطوى الصوم ، وكان من استقامة الحالة على سنن مرغوب فيه ، وقد قيل : الاستقامة مقام عال وطريق سائل ، قال الله عز وجل : «وَأَن لَّوِ اسْتَقيَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَّاءً غَدَقًا» (١) - الآية - .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «استقيموا ولن تحصوا ، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن» .

وقال المشايخ رضي الله عنهم : للاستقامة درجة بها كمال الأمور وتماها ، وبوجودها حصول الخيرات ونظامها ، فمن لم يكن مستقيماً في حالته ضاع سعيه وخاب جهده ، وإن كان له كد واجتهاد .

٢٩ - ومن الطبقة الثالثة : الشيخ المبارك الصالح أبو عبد الله السائح .

من أهل سلا ، ومن تقي سيدى أبا العباس بن عاشر ، ونظراءه من أهل زمانه ، فأخذ عنهم وتبرك بهم واقتبس من فوائدهم ، مذهبه السياحة في الفلوات ، والتجرد للعبادات إلا أنه في التاريخ بلغ به السن إلى غاية لا يستطيع

(١) سورة الجن آية ١٦ .

على المشى والجولة ، فاستقر بسلا ، فإذا سئل عن فائدة العزلة والسياسة ، يقول : السلامة في العزلة والراحة في الخلوة ، والعبرة في السياسة ، ومن خالط الناس اشتغل . والسياسة حالة من حالات الأكابر وهي نوع من مقام لمن غلبت عليه ولازمها ، وهي من باب العزلة والخلوة ، ولا تتم إلا بشروط هي مقامات مثل الصبر والمجاهدة ، والصوم والذكر والاعتبار ، وتحصيل ما لا بد منه من العلم والفقه والعبادات .

٣٠ - ومن الطبقة الثالثة : الشيخ البصير المثابر على أعمال الخير ، وصاحب الباطن المستنير ، أبو سليمان داود البصير .

أحد الأخيار المتعبدين ، من العباد الفاسيين ، ساذج الطريقة حسن الهدى ، سالم الفطرة ، مشغول بما يعنيه ، كثير المواظبة على الخير ، متوق عن الشبهات ، مسارع في الخيرات ، معمر الباطن في الحق ، زاهد في الدنيا راغب في الآخرة ، مستر بصلاحه متواضع ، شفيق القلب غزير الدمعة ، رقيق النفس ، من أحسن المجتهدين حالا ، وأصوبهم مذهبا .

وله حظ من مقام الصبر ، وقد قيل : إن الصبر من شعب الإيمان ، والصبر على أقسام : الصبر على ما هو كسب للعبد ، وصبر على ما ليس له . فالصبر على كسبه على قسمين : صبر على ما أمر الله تعالى به ، وصبر على ما نهى عنه ، وأما الصبر على ما ليس بكسب : فصبر على مقاساة ما يتصل به من حكم الله تعالى فيما له فيه مشقة .

وقال على رضى الله عنه : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد .

وقال ابن عطاء الله : الصبر الوقوف مع البلاء بحسن الأدب .

وفي الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الإيمان فقال : «الصبر والسماحة» . وقال ابن عيينة في قوله تعالى «وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صَبَرُوا» (١) . قال : لما أخذوا برأس الأمر ، جعلناهم رؤوساً .

(١) سورة السجدة آية ٢٤ ..

٣١ - ومن الطبقة الثالثة : البر الزكى البادى العلامة ، صاحب الحال والكرامة ، الكثير البركة والمعروف ، أبو محمد عبد الله بن مخلوف .

من أهل بادية سلا ، ومن أهل الصلاح والعبادة ، ومن طار له ذكر في الاشتهار بالخير ، وله صحبة مع سيدى أبى العباس بن عاشر ، ولقى غيره من أكابر السلاويين ، وله حالة معروفة وكرامة مشهورة ، فما حدث به بعض أصحابه قال : كان الشيخ أبو محمد معتكفاً في العشر الأواخر من رمضان بجامع القرويين من فاس ، وكنت إذ ذاك أخدمه وأهيم له ما يحتاج إليه ، وكان له في الوقت أهل وقرابة بموضع من ظاهر سلا ، فبينما أنا جالس معه في الخلوة إذ به قام بسرعة وصاح وضرب بيده واغتاظ غيظاً شديداً ، فلما سكن ما به تلطفت في سؤاله عن ذلك فقال لى : إن فلاناً - وعين واحداً من جيرانه في البادية - قد استشراف الآن لينظر على زوجتى في بيتها فصحت به ولطمته ، قال فورخت ذلك اليوم وخصصت تلك الساعة ، وفحصت بعد ذلك عما أخبر به ، فو الله ما غادر شيئاً مما جرى ، وقال لى ذلك الرجل لما سألته عن المسألة : نعم ، سمعت صياحه ورأيت يده لطمتنى ولم أر شخصه .

وحكى بعض الموثوق بهم من أصحاب سيدى أبى العباس بن عاشر هو وآخر مثله ، أنهما رأياه وقد جاز عشية من وادى سلا من هذه العدو إلى تلك الأخرى من غير قارب فى أسرع وقت ، قالا : ولا علمنا كيف صنع ، هل مشى على الماء ، أو خطا خطوة من هذه العدو أو انطوى له الفضاء .

وله حظ من مراقبة الخوف وقمع الهوى ، وقد قال الله عز وجل : «وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ» (١) .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «أخوف ما أخاف على أمتى اتباع الهوى وطول الأمل ، أما اتباع الهوى فيقضى القلب ، وأما طول الأمل فينسى الآخرة» .

(١) سورة النازعات آية ٤٠ ، ٤١ .

وقال سهل بن عبد الله : ما عبد الله تعالى بمثل مخالفة الهوى ، وقد قيل : إنما طاروا في الهواء ومشوا على الماء لمخالفتهم الهوى .
وأنشد :

نُونُ الْهَوَانِ مِنَ الْهَوَى مَسْرُوقَةٌ وَصَرِيحُ كُلِّ هَوَى صَرِيحُ هَوَانٍ
وفي الحكم : قرن الصبر بالظفر .

٣٢ - ومن الطبقة الثالثة : الشيخ الكثير البركات ، الدائم الصوم والصلوات ، الحاج السنّي الأوصاف ، أبو عمران موسى العزاف ، من أهل مكناسة وبها هو الآن .

كانت له مكانة ومزية عند سيدي أبي العباس بن عاشر لم تكن لأحد غيره ، متى ما كان يقدم عليه زائراً يتزله في داره ويضيفه من كسبه ، وهذا شيء لم يكن يصنعه لأحد غيره ، وكان يقربه أدنى التقريب ، ويطلعه من أمره ما لم يطلع عليه غيره ، وحاله مع ذلك عجيب في عبادته واجتهاده ، واتفقت له لطاف في وجهته إلى المشرق منها : أنه كان في المواضع التي لا يوجد فيها الماء ، يجد الماء في ركوته فيتوضأ منه ويشرب ، حكى لي ذلك عن نفسه ، وحكاه عنه غيره ، وله قدم عالية في التقشف والصبر على سلوك سبيل الخير ، والمثابرة على مشاقه ، نفعه الله ونفعنا به .

٣٣ - ومن الطبقة الثالثة : الفقير الصابر المنور الباطن والظاهر ، المداوم على تلاوة القرآن ، أبو زكرياء يحيى الفران .

من رجال مكناسة وأخير عبادها ، حسن اللقاء كثير البشاشة ، مسترسل الطلاقة والبشر ، دائم القبول ، متصل اللهجة ، جميل التعطف ، واسع الصدر في المستأنس على سحبة أهل الفضل والدين أمثاله ، يحدث عن سيره في عباداته واجتهاداته ، وتصرفه وورعه في كسبه ، وتحفظه على أمر دينه من باشره ، ما تقر به عين الأولياء ، ويعز وجوده في زمانه ، وكذلك كثر التحدث على إثارة غيره على نفسه بما يكون لديه ، وعن اشتغاله بطهارة

قلبه ، وعمّا ظهر على محله من علامة توفيقه والله تعالى يمن على من يشاء من عباده بفضلله ورحمته .

٣٤ - ومن الطبقة الثالثة : الثائب المتقى والمريد المهتدى ، المحتسب الصابر ، أبو عبد الله محمد المهاجر .

تلميذ الشيخ أبي الحجاج يوسف بن عمر الأنفاسى ، وأخو ولده سليمان فى التربية والطريقة ، أحد الأخيار المعدودين فى نجباء المريدين ، لقى مشايخ أهل زمانه ، واقتبس من فوائدهم ، واستمتع بالشيخ سيدى أبى العباس بن عاشر رضوان الله عليه ، وتبرك به وانتفع بمولاته ، وكان حميد الطريقة ، حسن النزعة ، وطىء الأخلاق ، نقى الجانب ، مقبولا عليه متخلقا ، وله حكايات غريبة فى خروجه من أرض الكفر ، وما كان سبب ذلك ، مما يشهد له باعتناء الله عز وجل ، وما جرت عليه من الألفاف فيها ، وكان مواظبا على الخيرات ، ملازما لحضور حلق العلماء ، مقبلا على طلب الاستفادة منهم ، كثير الزيارة والتردد لأهل الفضل والدين .

رحل إلى البلاد المشرقية برسم أداء فريضة الحج ، وإلى الآن لم يحدث له رجوع ، ولا سمعت له خبراً ، وكان فيه إيثار على ذوى الدين المستضعفين .

٣٥ - ومن الطبقة الثالثة : الشيخ المواظب على الخير ، الكثير المجاهدة والصبر ، المتبتل العابد ، أبو عبد الله محمد الزاهد .

جاناى الأصل ، نزل فاساً وهو بها حتى الآن ، معروف القدر ، مشتهر الذكر ، دائم الاجتهاد ، ذو حظ من العلم ، كثير المطالعة لكتب العلماء ، عليه مخيلة العبادة بادية ، وأنوار الطاعة لائحة ، أنحل جسمه الجهد ، وتورس لونه من شدة الخوف ، متكشف ترد عليه الحالات .

وكان قد بلغ الوصال فى الصوم لأن جفف الرطوبات من بدنه ، فأحدث ذلك عنده ييساً ، ثم استقام بعد ذلك مزاجه واعتدل تصوره ، وهو إلى الآن على سبيل الخير وملتزم مسلك البر فى زيادة وترق . وأدرك شيوخ الفاسيين ، ولقى أكابر الموفقين ، وتأدب بأداب الأخيار ، فلاححت

عليه من بركاتهم أنوار الأسرار ، والغالب ردع هوى النفس بالجوع المعتدل ورياضات النفس به من حالات الصالحين ، ومقام من مقامات السالكين ، وهو ركن من أركان المجاهدة ، فإن أرباب السلوك تدرجوا إلى اعتياد الجوع والإمساك عن شهوة البطن ، فوجدوا ينابيع الحكمة في الجوع ، وكثرت الحكايات عنهم في ذلك وقد قال الله عز وجل : « ولنبلونكم بشيء من الخوف - وقال في آخر الآية - وبشر الصابرين » (١) . فبشرهم بجميل الثواب على الصبر على مقاساة الجوع .

وقال يحيى بن معاذ : الجوع للمريدين رياضة ، وللتائبين تجربة ، وللزهاد سياسة ، وللعارفين تكرمة .

وقال سهل بن عبد الله : لما خلق الله الدنيا جعل في الشبع المعصية والجهل ، وجعل في الجوع الطاعة والحكمة .

٣٦ - ومن الطبقة الثالثة : الشيخ المبارك ، العابد الناسك ،

أبو بكر بن يونس .

رجل من أهل الخير والفضل ، وهو ممن تلتمس بركته ، وهو ابن خالة سليمان بن يوسف بن عمر ، وابن خالة عبد الرحمن بن مصباح الفقيه وهو من أصحاب سيدى أبي العباس بن عاشر الخاضعين بمواليته ، ولقى جميع أصحابه ومن كان في وقته من الفضلاء أمثاله ، فامسى الدار ، رحل إلى البلاد الشرقية ، ولقى هناك جماعة من الأخيار وتبرك بهم ، وأخذ عنهم ، وتأدب وصحب المريدين فتهذب ، سالم الصدر زكى النفس حسن الخلق ، مقبل على ما يعنيه ، قليل الإذابة ، مصروف عن الشر ، متورع في معيشته ، صابر على محن الوجود ، محتسب في ذات الله تعالى .

وكان له اختصاص بسيدى أبي العباس بن عاشر ، وأطلعه على بعض شأنه وساره بشيء من أموره وأسراره ، وبينه وبين أبي عبد الله محمد بن عباد محبة مؤكدة ، وله قدم في المجاهدة والمعاملة الحسنة ، وله حظ وافر من

(١) سورة البقرة آية ١٥٥ .

العبادة وإقامة الأوراد ، والوظائف الدينية من صوم وصلاة وذكر وتلاوة ،
نفعه الله ونفعنا به .

٣٧ - ومن الطبقة الثالثة : المتأمل الآيات بالاستبصار ، والمتربص
لشروق لمحّة الأنوار ، الشيخ الصالح التقي ، أبو زكرياء يحيى الزناسي .

من حوز فاس ، أحد فضلاء الوقت ، وأفارد صلحائه النجباء الأخيار ،
صحب الشيخ أبا عبد الله الحلقاوى ، وأخذ بالحد والاجتهاد على طريقة زهاد
العباد ، فصام وقام وقطع علائق النفس ، وتوجه منقبضاً عما هو بسبيله ، وله
منقبة جلييلة ، حدثنا بعض أصحابه ، وفشى خبرها واشتهر أمرها عند كثير
من إخوانه الفضلاء - قال : كنت أدخلو بنفسى وأجدت فى أمرى ، فكان يأتى
إلى رجل حسن الهيئة ، لم أر له قط مثلاً هدياً وسمتاً ، وحالاً ورائحة حسنة ،
وكان يعلمنى ما يخصنى من أمر دينى ، ويودعنى أسراراً من العلوم ،
وكنت أعجب من أمره ، إلى أن شرح الله سبحانه صدرى لمعرفته ، وعلمت
من وجه صحيح أنه الخضر عليه السلام فحمدت الله تعالى على ما آتانى . ولم
يقبل ذلك إلا بعد دهر ومدة من وقت رؤيته نفعه الله ونفعنا به .

٣٨ - ومن الطبقة الثالثة : العامل الصالحات ، المواظب على
الخيرات ، الشيخ الكثير البركات ، أبو زيد عبد الرحمن الحوات .

أحد نجباء الوقت المنحازين إلى مصاف الأخيار ، وهو من أصحاب
الشيخ الحلقاوى ، قديم التوبة ، مداوم على الإقلاع وملازمة الأعمال
الصالحات ، متقشف زاهد ، خبير عابد ، وكان ابتداء حاله وتوبته ما حدثنى
به فى جمهور من أصحابه قال : كنت أصطاد الحوت وأكتسب منه فخرجت
يوماً لشأنى فصعدت على ربوة وجلست مفكراً ، وكنت أعترض على سيدى
أبى عبد الله الحلقاوى طريقته ، فزاد ذلك فى بالى ونظرت فى أمره ، فأثبت
الله سبحانه فى قلبى محبته ، وأرانى محاسنه ومحا من صدرى كراهيته ،
وظهر لى أنه من آحاد رجال الوقت ومشايخه ، فنزلت من فورى إليه وتبت

إلى الله تعالى على يديه ولازمت خدمته وموالاته ، ففتح الله تعالى على قلبي بركة الشيخ خيراً كثيراً ، والحمد لله على توفيقه .

وله حظ من الورع وقدم في صدق الملاقاة وإظهار البشاشة وطلاقة أسرة الوجه ، نفعنا الله به .

٣٩ - ومن الطبقة الثالثة : المرتاد المؤدب المتخلق المدرب الصادق
الطلب الشيخ أبو عبد الله الزجاري النسب .

من أخيار الوقت وفضلائه ، وهو من أصحاب الشيخ الحلفاوى ومن ظهرت له من تلاميذه نجابة زائدة صحبها وافر عقل وعالى همة ، بل إدراك ونية ، وكان دمث الأخلاق ، حسن الطريقة ، رفيق المأخذ ، سهل الجانب ، يتندر فهمه وتتمكن درايته المحصلة ، يشهد له أكثر إخوانه بهذه الحالات الفاضلة ، ويقر له بالتقديم لذلك . توفي سنة ثمان وستين وسبعائة رحمة الله ورضوانه عليه ، ونفعه الله ونفعنا به .

٤٠ - ومن الطبقة الثالثة : الشيخ الصالح ، المجتهد الناصح ، المنور
الباطن والظاهر ، أبو الحجاج يوسف بن المعز الجابرى .

من أهل بادية سلا ، نزل فاساً وبها توفي رحمة الله عليه سنة ثلاث وسبعين وسبعائة .

كان رضى الله عنه أمياً من خيار أهل الوقت ، انتفع المسلمون بنصيحته فى الخير وقناعته بالأجر ، مستناً أدرك المشايخ الكبار وكان له حظ من الخير ، وتعلق بالرجاء .

حكى لى عن نفسه قال : لقد رأيت فى الوقت رجلاً من رجال الغيب ، وأنا أجتهد فى الصوم وأداوم الوصال ، فدفع لى أصل نبات وأمرنى بأكله ، فأكلته فبقيت دهرأ لا أطعم ولا أنزع إلى ذلك ، وقوتى مع ذلك موفورة بحيث ما أمتنع من أداء الفروض ، فأطلعنى الله عز وجل فى تلك المدة على أسرار ، وكان يهجس بخاطرى أن أفرق بين أهل الجنة وأهل النار ، حتى

كأنى أبصر قلوبهم وبواطنهم ، ثم رجعت بعد ذلك إلى معتادى من الأكل ،
فارتفع عنى ذلك الهاجس .

وحدثنى أن رجلاً من الأكابر رأى فى عالم النوم كأن براءة نزلت من
السماء ، والناس يتناولون لأخذها ، قال : فنزلت فى كنى ففتحتها ، فإذا فيها
بخط من نور : بسم الله الرحمن الرحيم ، براءة من الله سبحانه ليوسف بن المعز
من النار . قال : وكانت يدى بعد ذلك أعطر من المسك ، بقيت على ذلك
دهراً .

وحدثنى أنه فى وجهته تلك أعطاه رجال من أهل الغيب شيئاً من
الحناء ، وقالوا له : ارجع إلى الناس بهذه الحناء ، فلا تضعها فى ذى عاهة
إلا شفاه الله تعالى ، قال : وتعلمت بعد ذلك صناعة الجبر فصرت إذا
ربطت مكسوراً أو مفكوكاً أجعل عليه شيئاً من الحناء ، فإنه يبرأ بإذن الله
تعالى .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : «فبينما أهل الجنة فى الجنة فى مجلس لهم ، إذ سطع عليهم نور على
باب الجنة ، فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب عز وجل قد أشرق عليهم ، فقال :
يا أهل الجنة سلونى ، فقالوا : نسألك الرضى عنا ، قال سبحانه وتعالى
رضائى عنكم أحلكم وأنبلكم كرامتى هذا أوانها ، سلونى . فقالوا : نسألك
الزيادة ، قال : فيؤتون بنجائب من ياقوت أحمر أزمتها من زمرد أخضر ،
فجاؤوا عليها تقع حوافرها عند منتهى طرفها ، فيأمر الله تعالى بأشجار عليها
الثمار ، وتجيء جوار من الخور العين وهن يقلن : نحن الناعمات فلا نبأس ،
نحن الخالدات فلا نموت ، أزواج قوم مؤمنين كرام . ويأمر الله عز وجل
بكتبان من مسك أبيض أذفر ، فينشره عليهم ريح يقال لها المثيرة ، حتى
ينتهى بهم إلى جنة عدن وهى قصبة الجنة ، فتقول الملائكة يا ربنا : قد جاء
القوم فيقول عز وجل : مرحباً بالصادقين . قال : فيكشف لهم الحجاب ،
فينظرون إلى ربهم عز وجل ، فيستضيئون بنور الرحمن حتى لا يبصر بعضهم
بعضاً ، ثم يقول الله عز وجل : ارجعوههم إلى القصور بالتحف ، قال

ف يرجعون وقد أبصر بعضهم بعضاً . قال صلى الله عليه وسلم : فذلك قوله عز وجل : « نزلنا من غفور رحيم » (١) .

٤١ - ومن الطبقة الثالثة : الشاب الزكى ، البر التقي ، أبو الحسن

على المغيلي .

من أخيار شباب عباد السلاويين ونجبائهم ، زكراوى الطريقة ، معلم لكتاب الله عز وجل ، متفقه فى دينه ، لقي سيدى أبا العباس بن عاشر رحمه الله ، ونظراءه مثل سيدى عبد العزيز ، وسيدى على أيوب وغيرهم ، فهو ممن عرف بالصلاح والخير ، ويؤم الناس فى زاوية سيدى أبى زكرياء فى رمضان ، فيقرأ فى كل ليلة القرآن العزيز ، ولا ينام حتى يحنتمه ، شاب منسدل جلبات الحياء ، متقنع برداء الأتقياء ، والحياء مقام من مقامات الأولياء ، وصفة من صفات الأصفياء ، قال الله عز وجل : « ألم يعلم بأن الله يرى » (٢) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحياء من الإيمان » . وعن ابن مسعود رضى الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم لأصحابه : « استحيوا من الله عز وجل حق الحياء ، قالوا : إنا نستحي يا رسول الله والحمد لله . قال : ليس ذلك ، ولكن من استحيا من الله حق الحياء ، فليحفظ الرأس وما حوى ، ويحفظ البطن وما وعى ، وليذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله عز وجل حق الحياء » .

وقال الشيوخ رضوان الله عليهم : الحياء على وجوه : حياء كحياء آدم عليه السلام لما قيل له أفراراً منا ، قال : لا بل حياء منك . وحياء التقصير كحياء الملائكة ، فيقولون : ما عبدناك حق عبادتك . وحياء الإجلال كحياء لإسرافيل عليه السلام ، حتى تسربل بجناحه حياء من الله عز وجل . وحياء الكرم كحياء النبي صلى الله عليه وسلم ، كان يستحي من يأتبه إلى بيته ويطول أن يقول

(١) سورة فصلت آية ٣٢ .

(٢) سورة العلق آية ١٤ .

اخرجوا ، فقال الله عز وجل : «ولا مستأنسين لحديث» (١) الآية ؛ وحياء حشمة كحياء على رضى الله عنه حين سأل المقداد ، أن يسأل له النبي صلى الله عليه وسلم عن حكم المذنب ، لمكان فاطمة رضى الله عنها منه . وحياء الاستحقاق كحياء موسى عليه السلام ، فقال : إنه لتعرض لى الحاجة فأستحي أن أسألك يارب ، فقال له عز وجل : اسألنى ملح عجبك وعلف دابتك . وحياء هو صفة الرب سبحانه وجلت قدرته ، يرفع إلى العبد كتاباً مخنوماً ، بعد ما عبر الصراط ، وإذا فيه : فعلت ما فعلت ، وقد استحيت أن أظهر عليه ، فاذهب فقد غفرت لك .

وفى الحديث : «الحياء خير كله ، والحياء لا يأتى إلا بخير» .
وفى الحديث : «مما أدرك الناس من كلام النبوة ، إذا لم تستح فاصنع ما شئت» .

وقال الفضيل بن عياض : من علامة الشقى القسوة فى القلب ، وخمود العين ، وقلة الحياء ، والرغبة فى الدنيا ، وطول الأمل .
وقيل : الحياء انقباض القلب بتعظيم الرب .

انتهى عدد المسمى من الأخيار ، المطهرة قلوبهم من درن الأكدار ، المتقرب بهم وصلة لسبب التوسل بهم ، بل بسببهم يجهد مقل القصور قصاراه ، وجهد العبي حصرأ أولى مقالته وأخراه ، قعد به العجز عما هو من وصف سجاياهم الفاضلة يتمناه ، فصار بحسب طاقته إلى منتهى طوره من غاية مداه ، وإن لم يكن ممن يحسن وصف حليتهم ، فالله المطلع على ما انطوى عليه من صادق محبتهم ، فاستغفر الله من تبعات التقصير ، وأسأل منه جل وعلا على إثر ذكر هؤلاء الأعلام الجلة ، والمهتدين المفلحين الذين أحيوا مآثر الملة ، لهذا المقام العزيز ، الذى أشرقت بعدله الأيام ، واعترف بفضلهم الأنام ، وقضت مناقب خلافته الكريمة ، بأن تسطير أخبارهم ، وتقرير بركات ما لاح من أنوارهم ، أجل ما تستخدم فى تخليدها الأقلام ، نصراً

(١) سورة الاحزاب آية ٥٣ ..

يصحبه الدوام ، وسعداً يعزبه الأنام بل الإسلام ، وتمكيناً لا تعرف عراه
الانفصام ، وفتحاً يشمل البسيطة وأهلها فتمهد له الأقطار ، وتلهج بتيسيره
الأحلام ، وينسكب منه على جميع خلق الله المن والإنعام ، بفضل الله
وطوله ، ومعونة قوته وحوله .

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم رسله ، وعلى آله وأصحابه
وأنصاره وحزبه ، المتعلقين بحبل الله وحبله ، وسلم تسليماً .

كل بحمد الله السلسل العذب ، والمنهل الأحلى ، المرفوع للخلافة
العزيزية ، التي لا تزال مناقبها على مر الدهور تتلى ، في سلك من تحلى سلوكهم
الأربعيني في الجليل جيل فاس ومكناسة وسلا ، على يد المتقرب بتأليفه
ورفعه لخزانتها العلية ، عبد إنعامها ، المتعلق الرجاء بشامل إحسانها وعميم
إنعامها ، محمد بن أبي بكر الحضرمي . عرفه الله ببركة رجاله عواف القبول ،
وأظفره من إشفاق الدولة العزيزية والخلافة التي لها من الله فضل المزية ،
بتسنى المرغوب وتأتى السؤل ، بمنه وفضله .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً ، كثيراً طيباً
مباركاً فيه إلى يوم الدين ، والحمد لله رب العالمين .

انتهى بحمد الله وحسن عونه ، ١١ شعبان عام ١٣١٦

على يد العبد الفقير الخاني : عبد الرحمن بن جعفر الكتاني

بمدينة فاس ، صانها الله وأهلها من كل باس ، من نسخة كثيرة
التصحيح والتحريف . والصلاة والسلام على خير الأنام ، وعلى آله الكرام .